بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

واكب البحث فى الشخصية ظهور فكرة القومية فى تاريخ النهضة المعاصرة ، واتخذ عدد جم من الدارسين مظاهر النشاط البشرى مجالا للكشف عن مقوماتها ومعرفة أبعادها .

ولا شك أن الأدب بمختلف فنونه وشتيت لغاته ميدان رحب لدراسة الشخصية .

ويعالج هذا الكتاب موضوع الشخصية المصرية فى الأدبين الفاطمى والأيوبى من خلال النصوص الأدبية لعصرين هما أزهى عصور الأدب العربى فى مصر . ويهدف إلى تحديد مقومات الشخصية المصرية وإبراز سماتها والكشف عن كيانها فى ذلك الأدب ومقدار تصويره لها ، ومدى تأثيرها فيه .

وهذه الدراسة تعتمد على التعرف – من خلال الأدب – على سمات المجتمع وتبرز آثاره فى خلق أو تطوير نمط أدبى خاص وتستخلص آثار الصراع الطويل بين الإنسان والأرض والزمان على الإنتاج الأدبى .

ومن ثم فإن هذا الكتاب يجسد فكرة راودت بعض الباحثين ، ويجيب عن تساؤلات فريق آخر منهم ، ويسهم فى دراسة الأدب العربى بمصر . وهو أدب مازال ينتظر المزيد من الجهود فى البحث عن المفقود ، وتحقيق المخطوط ودراسة المطبوع ، ويعمق مفهوم الشخصية المصرية ووضعها فى إطارها من خلال تفاعلها مع الأدب العربى فى تلك الفترة .

القاهرة فى ديسمبر ١٩٧٨ م

المؤلف

تمهيد

الشخصية المصرية ومقوماتها

لم يستخدم العرب القدامى كلمة « شخصية » وإنما استخدموا كلمة شخص [١] وأرادوا به الإنسان ذكراً أو أنثى وردوا قول عمر بن أبى ربيعة فى الرائية :

فكـانٍ مجنـيٌ دونَ مـن كنتُ أتّقـى ثلاثَ شخـوصٍ كاعـبانٍ ومعْصـرُ

حيث أثبت الشخص وأراد به المرأة ، والشخص كل جسم له ارتفاع وظهور والمراد به إثبات الذات ، فاستعير لها لفظ الشخص ، والجمع أشخاص وشخوص وشخاص .

قال ابن سيدة . ولم أسمع بفعل فأقول : إن الشخاصة مصدر [٢] .

فمادة الكلمة « شخص » قديمة ومستعملة فى اللغة . وأما كلمة « شخصية » فهى مصدر صناعى وليدة المصطلحات النفسانية .

فإذا تتبعنا هذه الكلمة فى اللغات الأوربية وجدناها لاتينية الأصل Persona ومنها اشتقت الكلمة الفرنسية Personalité[٣] والإنجليزية Personality وقد استخدمت الكلمة اللاتينية Pessona للدلالة على القناع الذى كان يلبسه الممثل فى العصور القديمة ليخلع على نفسه ثوب الدور الذى يمثله وليظهره أمام الجمهور بمظهر خاص .

وقد اهتم أحد الباحثين بدراسة التطور التاريخى لهذا اللفظ اللاتينى Persona ، وحاول تصنيف معانيه فى ميادين اللاهوت والفلسفة والاجتماع وعلم النفس . ووضعها فى صنفين رئيسين هما :

الدلالة على المظهر الخارجى ، والدلالة على جوهر الإنسان أو طبيعته الداخلية ، وظلت الدلالتان مثار جدل طويل بين الدارسين المعاصرين والسابقين [٤] .

---

(١) راجع مادة شخص فى لسان العرب .

(٢) المجمع الوسيط ط مجمع اللغة العربية جـ ١ القاهرة ١٩٦٠ .

(٣) La Rouss Page 128e?, PARIS 1972

(٤) الشخصية وقياسها د . محمد عماد الدين إسماعيل ص ١٣ .

ومنذ القدم ودراسة الشخصية تحظى باهتمام المفكرين ، فدعوة سقراط « اعرف نفسك » هى فى الحقيقة دعوة إلى البحث عن الشخصية . وعلى مر التاريخ تعددت المحاولات الباحثة عن إدراك الشخصية الإنسانية ، ولكن الدراسات العلمية أخذت فى الظهور عند مستهل القرن العشرين مع بداية نشاط علم النفس واستقلاله عن غيره من العلوم (١) حيث وجه علماء الطب العقلى والتحليل النفسى عنايتهم إلى هذا الميدان (٢)

وحول مفهوم الشخصية تباينت وجهات نظر الدارسين وراح كل فريق منهم يعرفها من خلال جانب يريد إبرازه :

فمنهم من ركّز على فكرة التوافق الاجتماعى ، واعتبر الشخصية معادلة للجانب الاجتماعى فى الفرد « فهى التى تتحدد وتتشكل على أساس استجابته للآخرين وخاصة فى الجوانب الاجتماعية » وبعضهم أكد كمونها فى الفرد نفسه ونظر إليها على أنها ذلك التنظيم الديناميكى الذى يكمن بداخل الفرد والذى ينظم كل الأجهزة النفسية والجسمية التى تملى على الفرد طابعه الخاص والتكيف مع بيئته .

وذهب فريق ثالث إلى القول بانفراد الشخصية وتميزها ، فالشخصية هى التى تجعل الفرد يتصرف مستقلا عن كل ما يحمله ذهنه من ميول حضارته الأساسية (٣)

وهذه التعريفات المختلفة تدور جميعها حول المدلول الفردى Individual لكلمة الشخصية فهى نموذج Patiem حياة الفرد أو ذلك المجموع الكلى لاتجاهات السلوك التى تعطى معنى للفرد وتميزه على الأعضاء الآخرين فى المجتمع(٤) .

وإلى جانب هذا المدلول الفردى فإن علم النفس الاجتماعى نظر إلى مدلول الشخصية نظرة أعم أطلقها على مجموع الأفراد فى مجتمع ما ، وإن أكد عدم انخراط الجميع فى ذلك المدلول (٥) . فالشخصية إنما تتكون نتيجة لاستغراق الفرد ومشاركته وإحساسه بالحياة

(١) الشخصية وقياسها د . محمد عماد الدين إسماعيل ص ١٣ .

(٢) المرجع فى علم النفس د . سعد جلال ص ١٣ ٥ .

(٣) الشخصية وقياسها د . محمد عماد الدين إسماعيل ص ٦ وما بعدها .

(٤) الثقافة والتربية د . حسن الفقى ص ٤٧ .

(٥) المرجع فى علم النفس د . سعد جلال ص ٥٢٢ .

الاجتماعية ، ولذلك فإن الاهتمام بدراسة النمط الاجتماعى للشخصية من ألزم الجوانب لاستكمال وحدة المجتمع (١) .

ويؤكد الدكتور حامد عمار القول بأن النمط الاجتماعى للشخصية إنما يمثل السمات الغالبة فى شخصيات الأفراد والاستجابات الاجتماعية المقننة التى يمكن توقعها من أكبر عدد من الأفراد ، وليس معنى هذا أنه لا يوجد من بينهم من يشذُ عن هذا التوقع ، أو يحيد عن المسلك « الوسط » بالمعنى الإحصائى المعروف .

والنمط الاجتماعى فى أى مجتمع يتكون نتيجة لمقومات البيئة وظروفها ، وتركيب جماعاتها ، ونتيجة لأبعادها التاريخية التى عاش خلالها أفراد ذلك المجتمع ، وتوصلوا فى أثناء معاناتهم ومراسهم لها إلى نوع من التكيف والملاءمة مكنهم من بلوغ أكبر قسط من الطمأنينة إليها والألفة إليها ، ونظراً لاختلاف الظروف التى تحيط بالمجتمعات تختلف أنماطها وما تمثله من قيم واتجاهات تنعكس فى سلوك الأفراد ونظرتهم إلى الحياة وما يصطلحون عليه من علاقات وارتباطات ، ومن ثم يظهر الاختلاف فى الأنماط الاجتماعية بين مختلف الأمم (٢) .

وقد استغل بعض الدارسين المعاصرين المدلول الجماعى لكلمة « شخصية » فى استنباط سمات محددة تمثل الطابع القومى لمجتمع من المجتمعات (٣) .

وقد اتسع مدلول كلمة « الشخصية » فى الدراسات المعاصرة فلم يعد مقصوراً على الإنسان وحده ، سواء بالمعنى الفردى أم الجماعى ، بل أطلق أيضاً على البيئة الطبيعية بما فيها من جماد وحياة . فعلم الجغرافيا كما أطلق عليه أحد العلماء هو فن التعرف على شخصيات الأقاليم ووصفها وتفسيرها ، وذهب إلى القول بأن شخصية الإقليم كشخصية الفرد تنمو وتتطور وتتدهور (٤) .

---

(١) فى بناء البشر د . حامد عمار القاهرة : ١٩٦٨ ، ص ٧٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٨ .

(٣) انظر الطابع القومى للشخصية المصرية بين الإيجابية والسلبية د . عبد العزيز الرفاعى : القاهرة ١٦٧١ ، ص ٥ ، ٦ .

(٤) شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، د . جمال حمدان ، ص ٣ .

ويستخدم الأستاذ أحمد لطفى السيد كلمة « الشخصية » بدلالتها الفردية والجماعية ، ويذهب إلى أن العناصر المؤثرة فى كليهما عناصر مترابطة ، فشخصية الإنسان المعنوية تتألف من معتقداته الدينية والاجتماعية والسياسية أى من آرائه فى الحياة ، فإذا كان ناقص الشخصية فجدير ألا يكون صالحاً لعمل نافع ، وكما أن شخصية الفرد هى الشرط لوجود العمل ولنجاحه فى الحياة الحديثة ، لأنها مناط الثقة به ولصلاحيتها لتأليف مجموع عامل مفيد ، كذلك شخصية الأمة هى الأساس الأول لرقيها ، بوصف أنها أمة ، لأن شخصيتها هى أساس احترامها فى عين غيرها ، ومجمع خصائصها القومية ، وعقد عاداتها وأخلاقها ، وبالجملة هى مجمع مقوماتها بوصف أنها كائن طبيعى حى مستقل بوجوده عما عداه (١) .

وربما كان لظهور فكرة القومية فى العصر الحديث أثر فى اتساع مدلول كلمة « الشخصية » ، فأصبحت تطلق على جنس من الأجناس البشرية ، ولعل بدعة ترجيح لجنس الآرى على الجنس السامى فى فضائل الأمم والأفراد (٢) ، تؤكد دلالة « الشخصية » على معناها الواسع الذى يشمل دراسة عناصر البيئة المادية والبشرية وما يتم من صراع بينهما .

وفى العصر الحديث ظهرت دراسات مختلفة لم يستعمل دارسوها لفظ الشخصية للدلالة على المعنى الفردى وإنما أطلقوها على المعنى القومى (٣) .

وواضح من خلال العرض السابق لمدلول كلمة « الشخصية » أنها استخدمت للدلالة على « الذات » إنساناً أو غيره ، كما استخدمت أيضا فى الميدان الجماعى أو القومى للدلالة على السمات العامة لشعب معين أو جنس بشرى .

ومصر موضوع هذه الدراسة مزيج مركب من عدة جوانب :

الجانب المادى : الذى يتجلى فى بيئة طبيعية أخذت حيزا من القشرة الأرضية ، وظهرت فيها الحياة منذ عصور بعيدة ، ولها حدود ومعالم تضيق وتتسع ، وتكبر وتصغر متأثره بعوامل

---

(١) المنتخبات ، أحمد لطفى السيد ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ، جـ ١ ، ص ٢٦ .

(٢) سعد زغلول ، عباس العقاد ، ص ١٤ .

(٣) ذكرت الدكتورة نعمات أحمد فؤاد عدة نماذج من هذه الدراسات التى كتبت بمختلف اللغات فى كتابها « الشخصية المصرية » ، ص ٩ وما بعدها .

التغير الطبيعى وبالحركات السياسية على مدى العصور ، وهذا الكيان المادى بمختلف أبعاده من تربة وموقع وغير ذلك له تأثيره فى تشكيل الإنسان الذى عاش فى هذه البيئة الطبيعية .

والجانب البشرى : فهناك سلالات بشرية هبطت أرض مصر منذ عصور سحيقة فى التاريخ وتعاقبت عليها أجناس وافدة من مختلف بقاع العالم واختلطت هذه الأجناس حيناً واحتكت ، وترك ذلك كله آثاره فى تكوين الشخصية المصرية .

والجانب الحضارى : وهو النتاج الملموس لتفاعل الجنس البشرى مع البيئة الطبيعية ، وهذا الجانب الحضارى هو الصورة المحسوسة التى تنطلق منها إلى التعرف على مقومات الشخصية المصرية ، لأنه يحمل طابعها ، ويدل على خصائصها ويصور معظم جوانبها .

وبهذا المفهوم لمصر – مصر الأرض والإنسان والتفاعل بينهما ، مصر البيئة الطبيعية بكل مقوماتها ، والأجناس البشرية بمختلف عناصرها ، والحضارات التى انبثقت منها أو انصهرت فيها على تطور تاريخها – أعالج الشخصية المصرية فى الأدبين الفاطمى والأيوبى » .

البيئة الجغرافية :

يقول الأستاذ هنرى بر « HENRY BERR » المشرف على صدور الموسوعة التاريخية الكبرى « تطور الإنسانية L'Evolution de L'humanité » فى تقديمه للمجلد الرابع منها ، وعنوانه « الأرض والتطور البشرى » .

« لاريب أن أثر البيئة قوى جداً على الإنسان ، فالجفاف والرطوبة والرياح والضوء والحرارة بل وكهرباء الجو تستطيع أن تعدل من صفات الكائن الحى تعديلا دائماً أو مؤقتاً سواء كان هذا الكائن حيوانا أو نباتاً ، كما أن الطعام الذى يستهلكه الكائن الحى يؤثر فى نموه .. إن البيئة – بلاشك – تركت أثرها القوى فى تكوين الإنسان خلقاً وتفنناً ، وأن قوة هذا الأثر ومدى تأثيره لا تزالان موضع بحث .. ولا غرابة فى أن تؤثر مظاهر البيئة الطبيعية فى خيال الشاعر أو أن يستوحى الفنان من البيئة الطبيعية التى يعيش فيها آيات فنه ، وأن وضع قاعدة عامة عن العلاقة بين البيئة والفن ستفتح للناقد الأدبى مجالا واسعاً للبحث (١) .

---

(١) الأرض والتطور البشرى ، لوسيان فيفر ، ترجمة محمد السيد غلاب : القاهرة ، ١٩٧٣ .

ويقول « محيى الدين بن عربى » فى « محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار » (٢ – ٣) : حكى لنا بعض الأدباء عن « على بن الجَهْم » وكان بدوياً جافيا لما قدم على المتوكل وأنشده يمدحه بقصيدته التى يقول فيها :

أنت كالكلبِ فى حفاظِك للودِّ ... وكالتَّيْسِ فى قراعِ الخطوبِ

أنت كالدَّلوِ لاعَدِمْناك دلوا ... من كبارِ الدلا كثيرَ الذنوبِ

فعرف المتوكل قوته ورقة مقصده وخشونة لفظه ، وعرف أنه ما رأى سوى ما شبهه به لعدم المخالطة وملازمة البادية، فأمر له بدار حسنة على شاطىء دجلة فيها بستان حسن يتخلله نسيم لطيف يغذى الأرواح ، والجسر قريب منه وأمر بالغداء اللطيف أن يتعاهد به . وكان يركب فى أكثر الأوقات فيخرج إلى محلات بغداد فيرى حركة الناس ولطافة الحضر ويرجع إلى بيته ، فأقام على ذلك ستة أشهر والأدباء والفضلاء يتعاهدون مجالسته ومحاضرته . فاستدعاه الخليفة بعد مدة فأنشده :

عيونُ المها بينَ الرُّصافةِ والجسرِ

جلبنَ الهوى من حيثُ أدرى ولا أدرى

أعدنَ لىَ الشَّوْقَ القديمَ ولم أكنْ

سلوتُ ، ولكنْ زدنَ جمْراً على جمرِ

سلَبْنَ وأسلمْنَ القلوبَ كأنَّما

تُشَكُّ بأطرافِ المثقَّفةِ السُّمْرِ

وقلنَ لنا : نحنُ الأهلَّةُ إنَّما

نضىءُ لمن يسرى بليلٍ ولا نَقْرى

فقال المتوكل : « لقد خشيت عليه أن يذوب رقة ولطافة » (١)

---

(١) ديوان على بن الجهم ، تحقيق خليل مردم بك ، ص ١٤٢ ، ط ٣ ، لجنة التراث العربى ببيروت ، ١٩٥٩م.

من هذه الحقيقة المؤكدة عن تأثير البيئة الطبيعية فى تكوين الشخصية أنطلق فى بحثى عن مقومات الشخصية المصرية موضحاًملامح هذه البيئة ، مبيناً آثارها .

ولما كانت تأثيرات الطبيعة تتميز – إلى حد كبير – بالثبات فإن الملامح التى تنعكس على الأدب من خلال تأثيرها قلما تختلف من عصر إلى عصر .

وتتشكل جغرافية مصر الطبيعية من : الموقع ، والسطح ، والمناخ ، ولكل دوره فى تشكيل شخصيتها .

الموقع :

لا يختلف موقع مصر بحدوده الطبيعية منذ فجر تاريخها إلى اليوم . ومصر الحديثة تمتد من خط ٣٥° إلى ٢٥° طولا ، ومن خط ٣١° إلى ٢٢° عرضاً ، وتبلغ مساحتها ٣٨٦١١٠ ميلا مربعا وإن كان الجانب العامر بالحياة من هذه المساحة لا يتجاوز ١٢٥٧٨ ميلا مربعا .

ولقد رسم هذا الموقع صورة البيئة الطبيعية لشخصية مصر إذ أخذت من أثيوبيا الجبلية الوعرة بيئة منبسطة كأفضل ما يكون الاستواء واستمدت منها تربة رسوبية بركانية دون أن تعانى من البركنة والزلزلة ، ثم أخذت مائية الموسميات دون أن تأخذ منها رطوبتها الزائدة ومناخها القاسى (١).

ودور الموقع المصرى فى امتزاج الحضارات الإنسانية القديمة يشهد به تاريخ مصر اليونانية ، الذى جمع بين حضارات الهند والصين والشرق الأدنى واليونان حيث سهل ذلك الموقع عملية احتكاك هذه الحضارات (٢) .

ومصر – بموقعها – تكاد تنفرد بين قدر من العزلة فى غير تقوقع وقدر من الاحتكاك – لا يصل إلى حد التميع ، ومقارنة بين اليمن ولبنان ومصر من هذه الزاوية نجد أن اليمن فى بعض النواحى تشبه مصر فهى المفتاح الآخر للبحر الأحمر ، ومع ذلك فقد أخذت من هذا الموقع المفتوح الانطواء الحضارى والتشتيت خاصة بعد انهيار سد مأرب فى حين أخذت مصر الانطلاق الحضارى وصلابة الشخصية . وكذلك الشأن بالنسبة للبنان ، إذ يشبه موقعه موقع

(١) شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، د . جمال حمدان ، ص ٤٥٤ .

(٢) الحركة الفكرية فى مصر د . عبد اللطيف حمزة ، ص ٧ .

مصر فى بعض النواحى لكن هذا الموقع انتهى بلبنان إلى تميع الشخصية وبمصر إلى التطور والتوازن .

وبهذه المعادلة احتفظت مصر بكيان مستقل وشخصية قوية متميزة ، فلم يؤد موقعها – كواحة صحراوية – إلى الشعور بالذات ذلك الشعور الذى قد يتحول إلى نظرية عنصرية وإنما كان الوعى بالذات إقليميا أكثر منه عنصريا وجغرافياً قبل أن يكون جنسياً (١) .

وسنرى مدى تأثير هذه القيمة النفسية على شخصية مصر فى الأدبين الفاطمى والأيوبى (٢)

وتوسط موقع مصر الجغرافى له دوره فى تكوين سمات الشخصية المصرية ، الخلقية والنفسية التى انعكست على الحضارة والآداب ، فقد سهل موقعها – كما سبق ذكره – تلاقى الحضارات وامتزاجها ، ونتج عن ذلك تكوين الذوق المصرى الذى قام بعملية سَبْرغور لألوان الثقافية ، حيث أخذ يتذوقها ويهضمها ، ثم اهتدى إلى تمييز ما يلائمه منها . وهذا ما فعلته « هليوبوليس » فى مصر الفرعونية القديمة ، ثم ما فعلته « الإسكندرية » فى العهدين الإغريقى والرومانى ، ثم ما فعلته « القاهرة » فى العصر الإسلامى .

وتأثير الموقع فى تكوين شخصية مصر الأدبية متعدد الجوانب ، فقد لعب دور الوسيط فى تجميع الحضارات ، وأثر بطريق غير مباشر حين أصبح هذا الموقع حجر الزاوية فى النشاط التجارى ، الذى بلغ قمته فى العصور الوسطى .

ولا يخفى دور هذا النشاط فى نمو الاقتصاد ووفرة الثروات التى تنعكس على كل الفنون ومن أهمها الآداب .

وفى تاريخ أدبنا العربى صور صادقة تروى آيات ازدهاره ، خلال فترات التقدم

---

(١) شخصية مصر . دراسة فى عبقرية المكان ، د . جمال حمدان ، ص ٨٢ .

(٢) اكتسبت مصر من موقعها الجانب الإقليمى لا التعصب الجنسى وستتجلى آثار هذه الظاهرة فى أدب مصر الفاطمية والأيوبية حين نرى فيضاً من التغنى بمصر وجمالها ، ولكنه خال من روح الشعوبية ، بل أكثر من ذلك فإن معظم الذين تغنوا بها شعراء من أصول جنسية غير مصرية .

الاقتصادى ، كمـــا حدث فى العصر العباسى الأول فى بغداد والعصرين الفاطمى والأيوبى فى مصر .

السطح :

يرى بعض الباحثين أن هضاب مصر كانت خضراء ممطرة فى الأزمان السحيقة ، وأن مجرى النيل كانت تحفه عدة مستنقعات ، تعذر على الإنسان أن يقيم حياته فيها ، فعاش على الرعى والصيد بين جنبات الهضاب الخضر ، ثم حدث جفاف وتحجرت الهضاب ، وغادرها سكانها ، واتجهوا إلى المستنقعات فى أسفل الوادى وحولوها بجهود جبـــارة إلى حقول مزروعة ، تشقها مجارى الرى والصرف ، وبدأ الإنسان المصرى يكون سطح مصر .

« فمصر هبة المصريين » وهذا ما أكد صفات الشخصية ، والرسوخ والانفراد بالذات ، وأثر فى تكوين الشخصية المصرية (١) .

وقد تبلورت صورة السطح منذ فجر التاريخ وتحددت معالمها فى بيئتين مختلفتين : هما بيئة الوادى الخصيب ، وبيئة الصحراء الجرداء ، ولكل منهما سماته الخاصة ودوره الفعال فى تكوين شخصية مصر ، فعلى الرغم من أن منطقة الوادى هى المنطقة المعمورة بالحياة والسكان فإن للصحراء دوراً هاماً فى تشكيل الإنسان المصرى تاريخياً وحضارياً .

ويبدأ الوادى فى الجنوب شديد الضيق تحتضنه من الشرق والغرب مرتفعات ، وتسير بحذائه متجهة نحو الشمال ، فتأخذ المرتفعات فى التواضع فى حين يتسع الوادى حتى إذا بدأ الانفراج عند الدلتا لم يكن اتساع السهل فيها وانخفاض التل حولها إلا استمراراً

---

(١) كانت المرتفعات المحيطة بمصر ممطرة .. ثم جفت فتحولت إلى صحراء ، ولا تزال شواهد سكناها القديمة ماثلة فيما عثر عليه من العديد من الأدوات البدائية التى خلفها الإنسان الأول فى مواضع متفرقة على سطحها . راجع تفاصيل هذه الفكرة فى :

(أ) تاريخ الشرق الأدنى القديم الجزء الأول مصر والعراق ، د . عبد العزيز صالح ، ص ١٦ .

(ب) تكوين مصر . د . شفيق غربال ، ص ٢ ، القاهرة ١٩٥٧ م

لاتجاهات تحددت منذ البداية ، ، وفيما بين الوادى والدلتا يستمر انحدار السطح العام متصلاً مطرداً من الجنوب إلى الشمال .

وقد شكل السطح جسم مصر كما أثر فى تكوين روحها وعقلها . فمصر التى تترامى نحو ١٢٠٠ كيلو متر بين الشمال والجنوب تبدو كالكأس الطويلة أو الزهرة ، ساقها الصعيد ، وزهرتها الدلتا ، وبرعمها الفيوم ، ويشبهها بعض الباحثين بالنخلة : صعيدها باسق ودلتاها كالمظلة المنفرجة فى حين أن الفيوم عرجونها . وقد حدد السطح بهذه الصورة نمط الحياة السياسية والإدارية فى مصر . فمصر مسافة لا مساحة تمثل مشكلة تنظيم إدارى داخلى دون أن تتحول إلى مشكلة سياسية ومسألة وجود وكيان » (١) .

وقديماً وصف « أبو الصلت » فى رسالته المصرية وادى النيل بقوله :

ويكتنفها من مبدئها فى العرض إلى منتهاها جبلان أحدهما فى الضفة الشرقية من النيل وهو المقطم والآخر فى الضفة الغربية منه ، والنيل بينهما ، وهما أجردان غير شامخين يتقاربان جداً فى وضعها من لدن أسوان إلى أن ينتهيا إلى الفسطاط ، ثم تتسع مسافة ما بينهما وتنفرج قليلا فتتسع أرض مصر من الفسطاط الى ساحل البحر الرومى الذى عليه الفرما وتنيس ودمياط ورشيد والإسكندرية (٢) .

ويتميز سطح مصر بالتجانس فى مسيرة الوادى والتلال المحيطة به وتكوين تربته ، فكل جوانب السطح ومظاهره ، تتدرج على المحور الطولى من المنبع إلى المصب ، فحواف هضبتى الوادى تخضع لظاهرة التدرج تباعداً أو ارتفاعاً ، فهما تزدادان تباعداً كلما اتجهنا شمالاً ، كما تقلان ارتفاعاً ، ومع انفراج الدلتا تزداد الحواف التليَّة تواضعاً بمقدار ما تزداد تباعداً (٣) .

وتتزايد التربة سمكا كلما اتجهنا شمالا ، فمتوسط سمكها عند أسوان وقنا حوالى ٦.٧ أمتار ، أما فى جنوب الدلتا فيبلغ متوسط السمك حوالى ٨.٥ الأمتار ، ولا يعرف السطح تغييراً مفاجئاً ، وإن كان ثمة تغيير فهو خاضع لظاهرة التدرج ، ولهذا فإنه لا يبدو واضحاً إلا فى الطرفين فى برارى الدلتا والنوبة العليا ، ومع ذلك فهو اختلاف إقليمى ثانوى الدرجة (٤) .

---

(١) شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، د . جمال حمدان ، ص ٧١ .

(٢) الرسالة المصرية ص ١٦ ، نوادر المخطوطات م١ تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، مكتبة الحلبى ١٩٧٣م

(٣) شخصية مصر – دراسة فى عبقرية المكان ، د . جمال حمدان ص ١٩ .

(٤) المرجع السابق ص ١٧ .

لقد أثار هذا التجانس انتباه العرب فوصفوا مصر بقولهم : « هى ما بين أربع صفات ، فضة بيضاء ، أو مسكة سوداء ، أو زبرجدة خضراء ، أو ذهبة صفراء ، وذلك أن النيل يعم أرضها ، فتصير كالفضة البيضاء ، ثم ينضب عنها فتصير مسكة سوداء ، ثم تزرع فتصير زبرجدة خضراء ، ثم تستحصد فتصير ذهبة صفراء » (١)

ولتجانس السطح أبعاد شتى فى تكوين الشخصية المصرية : فإن هذا التدرج الهادىء ينعكس بالضرورة على المحاصيل الزراعية ، وعلى الإنتاج بل على السكان والحياة (٢) .

وهذه الأرض السهلة المنبسطة ، من شأنها أن تدعم أواصر الجماعة ، فتكسب المصرى سمات الترابط الأسرى والتآزر الجماعى ، وتجعله كثيراً ما يضحى بنزعاته الفردية ، فى مقابل الروح الجماعية .

ويتجلى الفرق واضحاً بين تأثير هذه البيئة السهلية ، وتأثير غيرها من البيئات الوعرة ، فى تثبيت إحدى النزعتين الفردية أو الجماعية على السكان ، وإذا لاحظنا تأثير جغرافية الأرض المقسمة تقسيماً طبيعياً على سكانها ، حيث تسود بينهم روح النزعة الفردية ، بسبب انتشار البيئات المحلية بما يترتب عليه اختلاف تلون السمات الإنسانية والطباع البشرية .

ومن آثار سهولة السطح على تكوين الشخصية المصرية أنها جعلت الروح المصرية تتسم بالبساطة والوضوح وألفة الرتابة ، ولا شك أن لهذه القيم آيات تجلت فى حضارتها وفنونها (٣). كما كانت ذات آثار فى الناحيتين اللغوية والدينية ، فمصر تختلف عن الشام والمغرب فى هذا الصدد ، لأن طبيعة الوادى السهلة لا تعرف العقبات الجبلية ، أو القلاع الوعرة التى يمكن أن تعتصم بها الأقليات الدينية ، كما فى الشام ، أو تتحصن فيها الأقليات اللغوية كما فى أجزاء مختلفة من بلاد المغرب (٤) .

وقد استمد وادى مصـــر الخصيب هيئته من نهر النيل الذى يمثل جوهر شخصية

---

(١) نهاية الأرب للنويرى جـ ١ ص ٣٥٧ مطبوعات وزارة الثقافة والإرشاد القومى القاهرة .

(٢) شخصية مصر – دراسة فى عبقرية المكان ، د . جمال حمدان ، ص ١٧ .

(٣) الطابع القومى للشخصية المصرية بين الإيجابية والسلبية ، د . عبد العزيز الرفاعى ، ص ٢٤ ، القاهرة ١٩٧١ .

(٤) شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، د . جمال حمدان ص ٦٠ .

مصر [1] ، فمن طينته الرسوبية تشكل الوادى ومن مائه وتربته نشأت الزراعة ، وقامت أعمال السكان ، وتشكلت علاقاتهم فهم يتعاونون فى صد غاراته عليهم ، وفى تنظيم مياهه لرى أراضيهم ويقيمون أفراحهم مرتبطين بموسم غدوه ورواحه ، وقد اتخذوه مركباً يصل بين أطراف مساكنهم وقراهم فسهل تجارتهم الداخلية، واعتمدوا عليه فى تجارتهم الخارجية حيث كانت (قناة أمير المؤمنين) [2] تصل ما بين البحر الأحمر والنيل ، وفيها تواصل السفن سيرها إلى الإسكندرية ، ولم تكن وسيلة مواصلات لنقل البضائع والنشاط الاقتصادى فحسب ، بل كانت حلقة اتصال بين المصريين داخل بلادهم اتصالاً سياسياً وحضارياً ، وعاملاً من عوامل وحدتهم الوطنية والنفسية ، كما كان عامل جذب للحضارات الخارجية وانصهارها بمصر ، فأصبح دعامة استقرار وتنظيم واجتذاب .

وقد أحس المصريون القدماء بقيمة النيل فى حياتهم فاتخذوه معبودهم وقدموا له القرابين ، وأصبح محوراً من محاور الفن الشعبى والأساطير المصرية .

وشغل جانباً كبيراً فى التراث العربى بمختلف علومه وفنونه ، فتحليل مياهه وأثرها فى جسم الإنسان كان موضع بحث « لابن وحشة » فى كتابه عن الفلاحة ، كما كان تأثير النيل على الطبع المصرى موضع دراسة « لابن خلدون » فى مقدمته ، وكان لمحه ونمه نصيب فى كتاب « الكندى » عن فضائل مصر .

---

(١) انظر ما جمعه الكندى حول وصف النيل فى كتابه « فضائل مصر » تحقيق د . أحمد العدوى وعلى محمد عمر . القاهرة ، ١٩٧٢ .

(٢) قناة أمير المؤمنين تطلق على قناة تربط النيل بالبحر الأحمر ، وهذه القناة قديمة حفرت قبل دخول العرب ثم أعيد حفرها على يد عمرو بن العاص بعد أن طمست قبل دخول العرب إلى مصر . وظلت مفتوحة إلى أن قام محمد بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب بالمدينة ودعا إلى خلع المنصور فكتب المنصور إلى عامله على مصر أن يطم هذا الخليج حتى لا تحمل الميرة منه إلى أهل المدينة المنورة فطم وعفى أثره . تاريخ مصر مخطوطة بمكتبة باريس الوطنية تحت رقم ٦٠٣٦ لمؤلفها « نوح أفندى » ص ٤ . راجع تفاصيل هذه القناة ودورها فى النشاط التجارى ما كتبته د . سيدة الكاشف فى كتاب مصر فى عصر الولاة من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية ، ص ١٦٧ وما بعدها ، القاهرة سلسلة الألف كتاب رقم ٢٤١ .

أما دوره فى الأدب المصرى قديمه ووسيطه وحديثه فكان ولا يزال موضوع دراسة ومصدر إلهام .

ولقد كانت الصحراء صمام الأمان للحفاظ على الشخصية المصرية ، حفاظاً يسير فى خطين متوازين :

أولهما : حمايتها من الذوبان أو التميع ، **وثانيهما** : الاحتفاظ بحضارتها على مر الزمن .

وقد تجلى عملها الأول فى حماية مصر من الغزوات الأجنبية ، حيث ظلت الصحراء واقفة بالمرصاد أمام الزحف الأجنبى لا تسمح له بالنفاذ إلى عمق الوادى إلا بقدر ضئيل . فإذا ما نفذ ذاب وتمصر .

إن دور الصحراء المصرية فى هذا الصنيع يختلف عن دور الصحراء العراقية ، فالوادى المحيطة بالعراق أشبه بالتلال الكثيرة التى تشرف على سهل فسيح تنصب فيه سيولها متدفقة كالبحار ، جارفة فى تدفقها كل ما تصادفه من رمال وأحجار ، فإذا تجمع كل ذلك فى بطن السهل واختلط ماؤه بترابه تألف له من ذلك سطح غير سطحه الأول ، وتربة غير تربته الأولى ، ومن هنا استطاعت القبائل الوافدة على العراق أن تغير من نظمه وأخلاق سكانه ، وأن تبدل من شخصيته (١) .

وعلى العكس من ذلك كانت الصحراء المصرية مصفاة تمر خلالها الأجناس الوافدة لتسلمهم إلى بطن الوادى حيث تتم عملية التذويب والانصهار .

ولصحراء مصر دور آخر لا يقل قيمة عن دورها الأول ، يتجلى فى الحفاظ على آثار شخصيتها وتراثها الذى يعد دعامة من أهم دعائم مقوماتها ، فلقد تحولت بطن الصحراء إلى وعاء يضم أوراق البردى ويحميه من غوائل الزمن ، فصانت بذلك حضارة مصر وتراث شخصيتها .

---

(١) الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول ، د. عبد اللطيف حمزة ، ص ٦ .

واستمرت صحراء مصر تساند الطبيعة الدينية فى الشخصية المصرية بما تهيئه لها من وسائل الثبات والاتزان والاستغراق ، فعلى جنباتها أقام كهان وادى النيل معابدهم ، وفى رحباتها أوى رهبان مصر المسيحية يحتمون بها .

وقد أكسبت صحراء مصر الشاسعة على الجانبين سكان وادى النيل قدراً من العزلة الروحية والاعتداد القومى ، ذلك أنهم سكنوا فى واديهم الضيق بين متاهات الصحراء ، وكان يقطن الجنوب – حيث يهيىء خانقه مدخلا إلى البلاد – شعوب كانت على الدوام أقل منهم تحضراً ، ولم تكن لهم صلات بحضارات تضارعهم إلا عن طريق الدلتا فكان طبيعياً أن تكون نظمهم السياسية مستقلة بذاتها إلى حد بعيد ، وأن يتمسكوا كل التمسك بعاداتهم الموغلة فى القدم ، وأن يتولد فيهم قدر من العزلة الروحية والاعتداد القومى ، وهى صفات نلمسها فى كثير من الأساطير والتقاليد (١) ولكن هذه العزلة لم تتحول يوماً ما إلى قضية عنصرية أو عصبية جنسية .

المـــــناخ :

مصر من الناحية المناخية منطقة انتقالية ، وذلك بحكم موقعها الفلكى الكوكبى ، كذلك فإن العامل المسيطر على مناخها عامل واحد بالدرجة الأولى هو كتلة القارة واليابس الأفريقى الصحراوى ، أما البحر المتوسط فينتحى إلى مرتبة ثانوية عامة ومحلية بصفة خاصة ، ولهذا تسيطر على مصر كقاعدة وبانتظام الرياح الشمالية الجافة ، لا يستثنى منها إلا شمال الدلتا .

ومن هنا فإن مناخ إقليم مصر يتسم بقربه من الرتابة حتى ليقال إن لمصر مناخاً وليس لها طقس .

وإن كان الامتداد عبر عشر درجات عرضية تقريباً ، يخلق بعض فروق محلية فإنها لا تتضح إلا فى أقصى الشمال وأقصى الجنوب ، ففى أقصى الشمال شريط ساحلى ضيق من مناخ البحر المتوسط . بينما يظل المناخ الصحراوى الحار الجاف يحتل سماء مصر التى تقع برمتها دون مدار السرطان .

والواقع أن الفروق الحقيقية فى المناخ المصرى هى الفروق الفصلية قبل أن تكون الفروق الإقليمية . فالفرق بين مناخ الصيف والشتاء فى نقطة واحدة من القطر أوضح وأهم من الفرق بين مناخ أى نقطتين فى فصل واحد (٢) .

---

(١) مصر من الإسكندرية الأكبر إلى الفتح العربى ، هـ . إيدرمن بل ، ص ٥ .
(٢) شخصية مصر ، دراسة عبقرية المكان ، د . جمال حمدان : ص ٢٤ .

وهذا التجانس الأساسى فى المناخ ينعكس على المحاصيل الزراعية وعلى نوع الغذاء : وبالتالى يؤثر فى تكوين الشخصية المصرية جسمياً ونفسياً .

وقد عرفت مصر بطيب خيراتها منذ قديم الزمان ، وذلك بسبب تجانس واعتدال مناخها ، فمما يروى عن طيب خيرها فى العصور الوسطى أنه فى كل شهر من شهور القبط صنف من المأكول والمشروب والمشموم يوجد دون غيره ، فيقال « رطب توت ، ورمان بابه ، وموز هاتور ، وسمك كيهك ، وتين بؤونه ، وعسل أبيب ، وعنب مسرى » (١) .

ويصف المقريزى مناخ مصر بقوله :

« مصر متوسطة الدنيا ، سلمت من حر الإقليم الأول والثانى ، ومن برد الإقليم السادس والسابع ، ووقعت فى الإقليم الثالث فطاب هواؤها ، وضعف حرها ، وخف بردها وسلم أهلها من مشاتى الأهواز ، ومصايف عمان ، وصواعق تهامة ، ودمامل الجزيرة أو جرب اليمن ، وطواعين الشام وحمى خيبر . وأمنوا من نزق الأنهار وقحط الأمطار » (٢) .

واهتم « ابن خلدون » فى مقدمته بملاحظة الصلة بين البيئة الاجتماعية والبيئة الطبيعية ، ومقومات الشخصية البشرية من الناحيتين العضوية والنفسية ، وطبق هذه الدراسة على مصر ، فاهتدى إلى وصف المصريين بجملة صفات من بينها المرح والخفة .

لقد غرس مناخ مصر المعتدل المنتظم فى أعماق الشخصية المصرية هدوء الطبع ، واستقرار النفس ، وجنبها الانفعالات والتقلبات التى تثيرها حدة الطبع وانحراف المزاج .

ومقارنة بين مناخى مصر والجزائر ، وأثر كل منهما على السكان تبين لنا الفروق الواضحة بين الشخصيتين وأثر المناخ فى تكوينهما . فمناخ مصر يتميز بالثبات والتحول التدريجى ، وآثار هذا الجو المتقلب تفسرها الإجابة الشائعة على ألسنة كثير من الجزائريين حينما تسأله كيف حالك اليوم فيجيب : « كما الطقس » .

لم يتعود غالبية المصريين فى بلادهم تساقط الأمطار أو تجمع السحب السوداء التى تحجب ضياء الشمس ، وإنما صفا جوُّ بلادهم معظم أيام السنة وسطعت أشعة شمسهم فى كل مكان ، ولم تنتشر الغابات الكثيفة فى أراضيهم مخفية بين أشجارها المتشعبة عوالم يقطفها الحيوان أو الإنسان ، ولم تقم الجبال الشاهقة تحجب وراءها بلدانا أو قرى ولم تتفرق الجزر فى مساحات متباعدة فتحول دون الاتصال السريع بين سكانها . وإنما كان ولا يزال الوضوح بأجل

(١) نهاية الأرب النويرى جـ ١ ص ٣٥٦ ، وفضائل مصر الكندى ص . ٧ .
(٢) خطط المقريزى ط مكتبة إحياء العلوم ، لبنان ، جـ ١ ص ٤٤ .

معانيه سمة الطبيعة المصرية ، فأصبح سمة الشخصية المصرية أيضاً .

فليس غريبا أن يترتب على ما ألفه المصريون القدماء من غلبة الخير على الشر فى أحوال نيلهم ووديهم وصحراواتهم ومناخهم بعض الأثر الذى صبغ حضارتهم الطويلة بصبغة غالبة من مظاهر الاستقرار والاتصال ، وصبغ حياتهم السياسية بطابع الهدوء والاستمرار ثم الإيحاء إليهم بنوع من الشعور التلقائى بالكفاية ، كفاية الجهد المنتج فى الأرض ، وكفاية الموارد المنسبية بها ، فضلا عن كفاية الحضارة فى بلدهم بوجه عام دون حاجة إلى مدد خارجى كبير .

ولم يكن انطباع المصريين بيسر البيئة واستقرارها ووضوح معالمها بغير أثر – مرة أخرى – فى ثبات تقاليدهم وثقافتهم ، وصبغ إنتاجهم الفنى القديم بصبغة غالبة من بساطة الخطوط ووضوح التعبير وسماحة الهيئة والطابع إذا قورن بغيره ، فضلا عن ثبات عقائدهم الدينية التى استوحوها من بيئتهم وبعدهم عن مظاهر التعصب المذهبى وتغليبهم طابع الرحمة فى أربابهم على طابع العنف والنقمة ، بل لم يكن بغير أثر – كذلك – فى تزكية آمال المصريين فى عالم آخر مستقر يجدون فيه أحسن ما استحبوه من الطمأنينة والكفاية والاستقرار فى دنياهم (١)

فالبيئة الفيضية فى مصر جمعت فى تناسب معقول بين حوافز النشاط وإمكانات العمل، فلم تكن الثمرة تسقط من الأشجار لفلاحين كسالى وقدوفُر النيل والشمس خامات الحياة . ولكن كان لابد لصنعها من معركة ضد الموت ، ضد الفيضانات وضد الرمل والملح (٢) .

فمن البيئة الفيضية اكتسب المصرى صفات الجهد والكدح والصبر والتعاون الجماعى .

الأجناس البشرية .

إذا كانت معرفة الجنس الأصلى لأى شعب من الشعوب مسألة عسيرة ومحوطة بالشكوك والغموض فمن الثابت تاريخيا أن هناك روافدَ عرقية وأصولا جنسية مختلفة احتكت وتفاعلت وأثرت فى بناء الجنس الأصلى للمصريين تأثيراً يختلف قدره تبعا للظروف التى تم فيها (٣)

---

(١) تاريخ الشرق الأدنى القديم ، الجزء الأول، مصر والعراق ، د. عبد العزيز صالح ص ٤ ، القاهرة ١٩٧٣م.

(٢) شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، د . جمال حمدان ، ص ١١٥

(٣) حاول بعض الباحثين قدامى ومحدثين تحديد الجنس الأصل للمصريين ومن هذه المحاولات ما ذكره كل من
ابن عبد الحكم فى فتوح مصر وأخبارها ص ١٨ .. الكندى فى كتابه فضائل مصر ص ٢٨
المقريزى فى خططه جـ ١ ص ٢٧ القلقشندى فى صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣١٣
النويرى فى نهاية الأرب جـ ١ . د . عبد العزيز صالح فى تاريخ الشرق الأدنى القديم جـ ١ ص ٢ وما بعدها

وأهم هذه العناصر :

الهكسوس(١) والليبيون (٢) والأثيوبيون(٣) والآشوريون(٤) والفرس (٥) واليونان (٦)

(١) اندفعت جماعات الهكسوس إلى مصر من جهة الشرق فى أوائل القرن التاسع عشر قبل الميلاد تقريباً ، واستمر وجودهم فى مصر حوالى قرن من الزمان ، وقد أوضح هذا الاحتكاك بعض خصائص الشخصية المصرية ، كما أسهم فى تكوينها وخاصة فى النواحى الاجتماعية ، فقد أكسبت مصر الهكسوس بعض عاداتها الاجتماعية ، من ذلك أن الهكسوس جمعوا بين أسمائهم الأجنبية وأسماء مصرية ، وتشبهوا بالمصريين فى ألعابهم وملابسهم

تاريخ الشرق الأدنى القديم ، د . عبد العزيز صالح ، ص ١٨٧ .

(٢) دخل الليبيون مصر متسللين فى عصر الأسرة ١٦ ، وعملوا جنوداً مرتزقة ثم استولوا على الحكم كما فعل المماليك فى مصر فى العصور الوسطى ، وقد تمصر الليبيون فى مصر كشأن مصر مع جميع الوافدين إليها ، فلم يلبث الليبيون أن تناسوا أصلهم الليبى ولم يذكروا عن أنفسهم إلا أنهم قراعنة يدينون بديانة المصريين .

انظر : شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، د . جمال حمدان ، ص ١٠٦ .

(٣) دخل الأثيوبيون مصر من الجنوب وتولوا حكمها خلال الأسرة الخامسة والعشرين ما بين ٧٣٠ – ٦٦٥ ق . م بعد أن طردوا الليبيين ، ولم يعتبر الأثيوبيون أنفسهم دخلاء على مصر بل رددوا فى متونهم أنهم أحلاف طيبة وأتباع الدين الصحيح لآلهه آمون .

انظر : تاريخ الشرق الأدنى القديم ، د . عبد العزيز صالح ، ص ٢٦٥ .

(٤) قدم الآشوريون من شمال العراق الى مصر غازين : وقد أوضح احتكاك هذا الجنس بالمصريين طبيعة الشخصية المصرية فقد قاومت هذا الغزو حتى طردته ، وباسم الدين راح كهان وادى النيل يبشرون ، ويشجعون الأمراء المصريين حتى تحقق لهم النصر .

انظر : تاريخ الشرق الأدنى القديم : د . عبد العزيز صالح ، ص ٢٧٢ .

(٥) وفدت العناصر الفارسية إلى مصر مرتين ، كانت الأولى على يد « قمبيز » واستمر بقاؤهم أكثر من قرن خلال الأسرة السابعة والعشرين . والثانية على يد « كسرى » الثانى عام ٦١٦ ق . م ، وقد صبغت مصر بعض الأسر الفارسية بعاداتها فسموا أبناءهم بأسماء مصرية واتجهوا بدعواتهم إلى الأرباب المصرين ، وساهم بعض ملوكهم فى إنجاز معابد مصرية فى الدلتا والواحات .

(٦) جاءت إلى مصر جماعات من الإغريق تجاراً وملاحين وجنوداً مرتزقة قبل غزو « الإسكندر الأكبر » لمصر عام ٣٣١ق.م وعمل « بطليموس » على استيطان جاليات من شعبه بمصر ، وقد أثمر وجود الإغريق فى مصر تشييد مدينة الإسكندرية التى لعبت دوراً كبيراً فى الأدب خلال العصرين الفاطمى والأيوبى ، كما عكس هذا الاحتكاك أثر الناحية الدينية فى الشخصية المصرية التى أدركها « الإسكندر » وراح يتقرب إلى المصرين بالرحلة إلى معبد آمون وادّعاء البنوة لآمون

انظر : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ـ ايدرس . بل . ص ٣٩

والرومان [1] والترك [2] ، والسودان [3] والعرب .

وتتميز العلاقة بين الجنسين المصرى والعربى بأنها علاقة امتزاج ، أما علاقة المصريين بغير العرب من الأجناس السابقة فأجدر أن نسميها علاقة اتصال أو احتكاك .

وعلاقة العرب بالمصريين بدأت قبل الإسلام عن طريق التزاور أو طريق الاستيطان أما طريق التزاور فقد سلكه تجار العرب الذين جذبهم ثراء مصر ووفرة خيراتها وتوسط موقعها .

ومنذ أقدم العصور وصعيد مصر عامر بالتجار العرب الذين أتو إليه عن طريق البحر الأحمر ووديان الصحراء الشرقية حتى إن المؤرخ والجغرافى اليونانى « سترابون » المتوفى نحو ٢٥ م قال عن مدينة قفط « KOPTOS » فى الصعيد : إنها مدينة نصف عربية [4] .

وظل طريق سيناء ينقل الأفواج العربية إلي مصر تجاراً ومهاجرين وكان من بين روادها فى العصر الجاهلى عمرو بن العاص ، وعثمان بن عفان ، والمغيرة بن شعبة وغيرهم .

ويلاحظ على طبيعة هذا الاتصال أن بعض الموجات النازحة لم تتجاوز منطقة الوجه البحرى وبعضها الآخر توغل إلى أعماق الصعيد مما جعل تأثير العرب موزعاً فى اتجاهات متعددة ، وأن حياة النازحين فى تلك الفترة أشبه ما تكون بحياة الجاليات الأجنبية فى كنف حكومة غير عربية وأن هذه الجاليات لم تكن متحدة اللغة أو الدين أو السياسة .

كانت الجماعات الوافدة على مصر بعد ميلاد السيد المسيح من أعقاب سبأ ، ومن هؤلاء كانت طلائع العرب الوافدين فى ظل الحكم الإسلامى بل كانوا يمثلون الغالبية من العرب فى مصر ، غير أن وضعهم حينئذ كان يختلف عن وضعهم فى الجاهلية إذ تكاثرت أعدادهم

(١) أخذ الجنس الرومانى مكانه بين المصرين ابتداء من سنة ٣٠ ق . م ، ولكنه لم يمتزج بالمصريين وظلا متنافرين سواء قبل اعتناق المسيحية أو بعدها ، وإن حاول الرومان التقرب إلى المصرين من زاوية العقائد والتقاليد الدينية ، وكان من أثر اضطهاد الرومان للمصريين ظهور الرهبنة « عند المصرين ، كما كان لنظم الحكم الرومانى فى مصر آثار عدة فى تكوين الشخصية المصرية .

(٢) الترك يشمل كل الأخلاط التى وفدت إلى مصر من ترك وديلم وصقالبة وشركس وغيرهم وقد قوى نفوذهم بمصر فى أواخر العصر الفاطمى ثم ازداد فى العصر الأيوبى وحكموا البلاد فى العصر المملوكى . البيان والإعراب للمقريزى ص ١١٥ .

(٣) استخدم الخليفة المستنصر هذا الجنس فى حراسة القصر وعلاقاتهم بمصر أسبق من ذلك وما تزال مستمرة . مصر ورسالتها ، حسن مؤنس ، ص ١٤٠ .

(٤) مصر فى عصر الولاة ، د . سيدة إسماعيل الكاشف ص ١١ ، ١٢ .

واستمدوا نفوذهم من السلطة العربية الحاكمة (١)

ثانياً – الفتح العربى وتتابع الهجرات :

منذ قدوم « عمرو بن العاص » إلى مصر مع نفر من جنوده العرب الفاتحين سنة ٢٠ هـ والجاليات العربية تتوافد تباعاً لتحيا فوق تراب مصر حياة منعزلة حيناً وملتحمة بالمصريين أحياناً ، ومع هذا المد المتصل من الهجرات العربية تتوالى أحداث سياسية ، وتنشأ ظروف اجتماعية تهيئان المناخ الطبيعى لعملية مزج ، أو انصهار حقيقى ينبثق منها كيان مصر العربية ، وتتحدد ملامح أدبها المعبر عن شخصيتها .

وإذا تتبعنا عملية الاحتكاك الجنسى فى مصر الإسلامية منذ فتحها حتى نهاية العصر الأيوبى وجدناه يمر بمراحل أهمها ما يلى :

المرحلة الأولى : ويمكن أن نطلق عليها مرحلة « الفتح » وفى تلك المرحلة عاش العرب عيشة القبيلة فى خطط أو قطائع أشبه بجاليات أجنبية فى وسط الشعب المصرى شأنهم فى ذلك شأن بقية العرب القاطنين فى مختلف البلاد ، حيث دأبوا على الحياة داخل معسكراتهم فى الأمصار أو فى الأجناد أو فى الثغور أو الرباط . وفى هذه المعسكرات أقاموا مسجداً يجتمعون فيه ويقيمون شعائر دينهم (٢) .

وعلى هذه الصورة عاشت القبائل العربية الوافدة مع جيش الفتح واختطت لها مدينة الفسطاط ، ومع ذلك فإن هذه المرحلة تسجل احتكاكاً بين الجنود العرب والأسرة المصرية . إذ نزل هؤلاء الجنود ضيوفاً على القبط . فقد اشترط على القبط بعد الفتح أن من نزل عليه ضيف واحد أو أكثر من المسلمين ، وجهت له الضيافة ثلاثة أيام ، ولعل السبب الذى حدا بالعرب إلى ذلك هو إقامتهم بالعاصمة والثغور وقد أخذ العرب واجب الضيافة من الرومان والبيزنطيين فى مصر (٣)

---

(١) البيان والإعراب عما بارض مصر من الأعراب ، المقريزى ص ٩١ ، ٩٢ تحقيق د . عبد المجيد عابدين .

(٢) التاريخ السياسى للدولة العربية ، عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين ، جـ ١ ، د . عبد المنعم ماجد ط ٤ سنة ٦٧ ، ص ٣٣٢ – ٣٣٣ .

(٣) مصر فى عصر الولاة ، د . سيدة الكاشف ، ص ٤٣ – ٤٤ .

المرحلة الثانية : وفيها يبدأ الاستقرار ، وهى المرحلة التى يصفها المقريزى بقوله : لم ينتشر الإسلام فى قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة عند ما أنزل « عبيد الله بن الحبحاب » مولى سلول « قيساً » بالحوف الشرقى ، فلما كانت المائة الثانية من سنى الهجرة كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها (١).

ولعل القيسية هم أول من فتحوا الأمصار وسكنوها ، وأول من أذن لهم فى ملكية الأرض واستغلالها ، أما معظم القبائل السبئية ، فقد انصرفوا بعيداً عن الحياة الزراعية زمناً بعد استقرار القيسية فى بلبيس(٢).

وفى هذه المرحلة نرى الوجود العربى فى مصر قوى متكافئة ومتفرقة على ديار مصر بنسب أكثر وأشد تنوعاً من ذى قبل ومقسمة من حيث طبيعة العمل إلى فريقين ، فريق مستقر انصرف إلى الأرض يزرعها أو بضاعة يتاجر فيها ، وفريق آخر آثر حياة البداوة ، يعيش على الرعى والغارات .

المرحلة الثالثة : وتمثل دور الأحلاف إذ كان قوامها بقايا العرب الذين احتفظوا بقبليتهم مضافاً إليهم أفواج العرب المهاجرين إلى مصر فى العصور التالية .

وقد تدفقت قبائل عربية على مصر وأخذت مكانها فى تمثيل الشخصية المصرية ولم تنقطع هذه المدة طوال العصور الوسطى .

ففى عهد الفاطميين تدفقت جماعات من بيوت قريش فى الحجاز وغيره ، وكان بعضها فى هيئة أحلاف تجمع بيوتاً مختلفة من القرشيين ومواليهم ، ورحب الفاطميون بهم فى ديار مصر ، سواء من كان منهم على مذهب الفاطميين أو على غير مذهبهم ، وكان من بين الطوائف الوافدة جماعات من العمريين من سلالة عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه أيام الفائز الفاطمى فى وزارة « الصالح طلائع بن رزيك » ، ومعهم طائفة أخرى من بنى عدى وبنى كنانة بن خزيمة ، ونزلت جماعة منهم بدمياط والبرلس ، وكذلك ظهرت جماعات من أقارب الفاطميين من سلالة جعفر الصادق فسكنوا مناطق بين منفلوط وسمالوط ومنهم السلاطنة والحيادرة والحسينيون ،

---

(١) البيان والإعراب عما بأرض مصر عن الأعراب ٤ المقريزى ص ١٠١ ، ٢ : ١ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٢ .

ولهؤلاء قرية قرب منفلوط لا تزال تحمل اسمهم إلى اليوم تسمى بنى حسين (١)

وكان لقبائل طيىء التى لمع اسمها أيام الفاطميين فضل كبير فى محاربة الصليبيين فأراد « صلاح الدين الأيوبى » مكافأتهم ، فنقل منهم نفراً إلى الحوف الشرقى وأسكنهم مساحات واسعة فى أرض جزام فى الجانب الشمالى الشرقى من الحوف (٢)

ومما لا شك فيه أن وفود هذا العدد الضخم من القبائل العربية إلى مصر واستقرارهم بها كان من أقوى العوامل التى حولت مصر إلى دولة عربية . وقد حدث هذا نتيجة تفاعل شديد بين العرب والمصريين جعل العنصرين يمتزجان امتزاجاً تاماً بحيث أصبح من الصعب أن نفرق بين العربى الأصيل وبين المصرى الأصيل (٣)

وليس من الصواب أن الموجة العربية الإسلامية أزاحت الأساس القبطى إلى الصعيد ، كما حدث مثلا فى الشام أو المغرب فالانتشار العربى فى مصر كان عملية تغلغل لازحزحة (٤)

ولقد ساعد على سرعة ونضج المزج – إلى جانب ما ذكرناه من أسباب – عامل آخر يرجع إلى طبيعة العرب الوافدين ، فإن هؤلاء العرب الذين أتوا إلى مصر لم يكونوا من البدو الذين لاحضارة لهم ، وإنما كان معظمهم من العنصر اليمنى الذى اشتهر منذ القدم بحضارته الراقية وإن كانت هذه الحضارة قد اضمحلت عند قيام الإسلام ، ولكنها تركت فى نفوسهم بقية استعداد للتمدن والتحضر مما ساعد على اندماجهم فى الحضارة المصرية وخلق فنون وآداب تمثل الشخصية المصرية وتعبر عن وجهها العربى الإسلامى(٥)

ثالثاً : عوامل امتزاج الجنسين :

(أ) علاقة الحكام العرب بالمصريين :

أحسَّ أقباط مصر منذ الأيام الأولى للحكم العربى بالفارق الكبير بين العرب وغيرهم من الشعوب ، بل تولد هذا الإحساس فى نفوس المصريين قبل الفتح العربى ، ومهد له وأعان على

(١) البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب . المقريزى . ص ١٢١ ، ١٢٢ .
(٢) المرجع السابق . ص ١١٧ .
(٣) الحياة الفكرية الأدبية بمصر من الفتح العربى حتى آخر الدولة الفاطمية . د . محمد كامل حسين. ص ٣ .
(٤) شخصية مصر . دراسة فى عبقرية المكان . د . جمال حمدان . ص ٦٤ ، ٦٥ .
(٥) مصر فى عصر الولاة . د. سيدة الكاشف . ص ١٥٠ .

تثبيت أقدامه ، وقد قرب المصريين من العرب ما وجدوه فى الإسلام من نصوص تهتم بهم ، وتبرز شخصيتهم وتوصى بهم خيراً (١)

حقا لقد فرق الإسلام نوعا من التفرقة بين المسلمين والذميين فى بعض المظاهر الاجتماعية كالزى والركوب ، لكن هذه المظاهر شكلية وهينة جداً إذا ما قورنت بمواقف الرومان - مثلا - من المصريين فضلا عن أن حكام مصر المسلمين لم يطبقوها إلا نادراً .

وقد دافع الحكام العرب عن حرية أقباط مصر ، ووقفوا لهم درعا واقية ضد ثورات بعض أفراد القبائل العربية بمصر خاصة فى المرحلة الأولى من العلاقة بين الجنسين ، من ذلك أن بعض المسلمين هدموا كنيسة أنشأها النصارى بمدينة « تنيس » سنة ٣٠٠ هـ فلجأوا إلى السلطان فأعانهم على إعادة بنائها واستخدم الإخشيد جنوده فى تمكين النصارى من إصلاح كنيسة أبى شنودة فى مصر .

وكان بعض قضاة مصر يسمح للنصارى بدخول المسجد ويجلس للقضاء بينهم (٢).

ولم يمض وقت طويل على الحكم العربى بمصر حتى ذابت فكرة العصبية العربية فى الحكم الإسلامى . وتولى أمر مصر حكام ليسوا من ذوى أصول عربية ، ولكن مصر تقبلتهم بقبول حسن وأضفت عليهم من طابعها الأصيل ، فلم يجد حكامها المسلمون غضاضة من مشاركة القبط أعيادهم الدينية ، وليس بدعا أن نرى المصريين يحتفلون بعدة أعياد جمعوا بينها فى مزيج مصرى ، منها ما كان من وحى الطبيعة المصرية ومنها ما هو موروث من الديانات القديمة أو الشرائع السماوية (٣).

وأسند حكام مصر خلال الدولتين الفاطمية والأيوبية مناصب عالية إلى كثير من النصارى وكانت العلاقة بين كبار النصارى وحكام مصر علاقة تعاون واحترام فى كثير من الفترات

يقول ناصر خسرو :

« رأيت فى مدينة مصر نصرانيا من سراتها قيل إن مراكبه وأمواله وأملاكه لا يمكن أن تعد ، وحدث فى سنة ما إن كان النيل ناقصا وكانت الغلة عزيزة ، فأرسل الوزير إلى هذا

---

(١) راجع فضائل مصر للكندى ، حسن المحاضرة للسيوطى .

(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى . ترجمة د . عبد الهادى أبو ريده . القاهرة ١٩٥٧ م . آدم متز . جـ ١ ص ٧٤ وما بعدها .

(٣) مصر فى عصر الولاة . د . سيدة الكاشف ص ١١ .

النصرانى ، وقال : ليست السنة رخاء والسلطان مشفق على الرعية فأعط ما استطعت من الغلة إما نقداً وإما قرضا . قال النصرانى : أسعد الله السلطان والوزير ، إن لدى من الغلة ما يمكننى من إطعام أهل مصر الخبز ست سنوات .. فأى سلام كانت فيه الرعية ، وأى عدل للسلطان بحيث يكون شعور الناس وأموالهم بهذا القدر (١)

(ب) تعريب الدواوين :

كانت الدواوين فى البلاد التى فتحها العرب تسجل بلغاتها الأصلية ، وقد أبقى « عمر بن الخطاب » على النظام الإدارى فى البلاد المفتوحة ، ومن بينها الدواوين (الْسجلات) تكتب باللغة اليونانية فى الشام ، وبالفارسية فى فارس العراق ، وبالقبطية فى مصر(٢)

واستمرت الدواوين تعمل بلغاتها المختلفة حتى كان عصر « عبد الملك بن مروان » الخليفة الأموى ، ونقل الديوان من الفارسية إلى العربية (٣) .

وكان « الحجاج بن يوسف الثقفى » صاحب اليد الطولى فى الأخذ بهذا التعريب فى بلاد العراق .

أما فى مصر فقد بدىء فى تعريب دواوينها فى خلافة « الوليد بن عبد الملك » وذلك سنة ٨٧ هـ ، ٧٠٦ م .

ويذهب أحد الباحثين إلى القول بأن تعريب الدواوين فى مصر إنما تم من اليونانية إلى العربية ، ولم يكن نقلا من القبطية إلى العربية . وأن ما ذكره مؤرخو العرب من كون الدواوين بمصر كانت بالقبطية ثم نسخت بالعربية لا يؤيده شىء من الآثار المحفوظة .

وقد يكون الحامل للعرب على هذا القول أنهم لما رأوا عمال الدواوين فى مصر من الأقباط ظنوا أن عملهم كان بالقبطية : أما النص العربى الذى كان مصدر هذا الزعم ، فمذكور فى كتاب « الولاة والقضاة » للكندى ص ٥٨ . قال : « حتى كانت ولاية « عبد الله بن عبد الملك ابن مروان » فأمر بالدواوين فنسخت بالعربية، وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية ، وصرف « عبدالله

---

(١) سفر نامه لناصر خسرو . المترجم إلى العربية ص ٦٣ . ترجمة د : مصطفى الخشاب .

(٢) التاريخ السياسى د . عبد المنعم ماجد ص ٣٣٧ .

(٣) الكامل فى التاريخ لابن الأثير . أخبار سنة ٦٦ هـ ص ٥٢٢

ابن أشناس » عن الدواوين ، وجعل عليها ابن يربوع الغزاوى من أهل حمص ، وذلك سنة سبع وثمانين هجرية » (١)

(جـ) حرمان العرب فى مصر من مرتبات ديوان الجند :

من أهم العوامل التى ساعدت على اندفاع العرب إلى الالتحام الكامل بالمصريين قانون أصدره الخليفة العباسى « المعتصم » يقضى بإسقاط العرب من ديوان الجند (٢) .

وقصة هذا الديوان تبدأ منذ عصر الخليفة « عمر بن الخطاب » فمن المعروف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعتمد على جيوش متفرغة للقتال منقطعة له حتى ولى الخلافة عمر ابن الخطاب ، واتسعت الإمبراطورية الإسلامية – ولم يعد نصاب الجيش من الغنيمة كافياً للإنفاق على المقاتلة فرتب « عمر » ديوان الجند ، ونظم للمقاتلة من الحجاز أو من انضم إليهم من عرب الجزيرة (روادف) مرتبات ثابتة تسمى العطاء ، يتسلمونها وعائلاتهم من الصبيان والنساء . وكان العطاء بقدر قرابتهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، وشهودهم بدراً ، أو المواقع المشهورة مثل القادسية واليرموك ، وكانت أسماؤهم مسجلة فى ديوان يسمى ديوان الجند .

وقد استمر هذا العطاء يدفع للعرب حتى خلافة المعتصم العباسى (٢١٨ ، ٢٢٧ هـ) (٣) ، الذى استكثر من جند الأتراك وأثبتهم فى الديوان وأمر واليه فى مصر « كعب بن نصر الصفدى » بإسقاط العرب من ديوان مصر وقطع العطاء عنهم ، وترتب على هذه الحادثة أن انصرفت جماعات من قبيلة لخم وجذام ومن على شاكلتهم ، إلى السعى وراء الرزق من موارد أخرى ، غير الجهاد والحرب ، وتفرقوا فى الجهات المصرية لممارسة الزراعة أو التجارة أو الصناعة أو غير ذلك من المهن التى كانت إلى ذلك الحين وقفاً على القبط . (٤)

---

(١) الأدب العربى بمصر من الفتح الإسلامى إلى نهاية العصر الأيوبى ، محمود مصطفى ص ٢٩ .

(٢) البيان المغرب فى أخبار الأندلس لابن عذارى المراكشى جـ ٢ ص ٤٠ تحقيق ومراجعة ليدى بروفنسال : بيروت : ١٩٦٧ .

(٣) التاريخ السياسى : د . عبد المنعم ماجد ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

(٤) مصر فى عصر الولاة ، د . سيدة الكاشف ص ٥٠ .

سمات الشخصية المصرية

لقد شكل كفاح المصرى فى بيئته الطبيعية صورة الحضارة المصرية التى أخذت تستمد من دفء المناخ وعذوبة النيل وعرق الشعب وسائل نموها وازدهارها .

وظلّت الفلك – وهى رمز الحضارة المصرية – تمخر عباب بحور الزمن حفيظة على كيانها الأساسى ، وجوهرها الحقيقى ، ملقية فى أحضان البحر ما رث من ثيابها مجددة من شطآن الموانىء التى أرست عليها ما استكملت به بنيانها وجددت به شراعها ، حتى إذا ما قاربت مشارف العصر الفاطمى تبدت فى صورة مميزة لكنها متلاحمة شديدة التلاحم . شأنها فى ذلك شأن الإنسان والمجتمعات فى التكوين والتأثير والتأثر .

ومن ثم فلا سبيل إلى التعامل معها – دراسة أو تحليلا – إلا من خلال مظاهرها المتعددة . ويمكن تقسيمها – تقسيماً اعتبارياً – إلى الجوانب التالية :

١ – الجانب السياسى المعبر عنّ العلاقات الخارجية والنظم الإدارية وأساليب الحكم الداخلى .

٢ – الجانب الاجتماعى المعبر عن طبيعة العلاقات بين أفراد المجتمع وعاداتهم ونظام حياتهم بما فيها من عقائد دينية وأعياد ومراسيم وأعمال إلى غير ذلك .

٣ – الجانب الاقتصادى : من الثروات الطبيعية إلى الموارد المختلفة والنظم والعلاقات .

٤ – الجانب الفكرى والثقافى من علوم وفنون وآداب .

الشخصية السياسية

لعل مصر أول أمة عرفها التاريخ ظهرت إلى الوجود عندما تكونت الوحدة بين الدلتا والصعيد نحو ٣٢٠٠ : ٣٤٠٠ قبل الميلاد . فكانت مصر بذلك أمة بمعنى القومية ، (وأول دولة بالمفهوم السياسى الكامل) .

ويكاد ينعقد اجتماع الدارسين على أن مصر والعراق هما أقدم من عرف الحضارة فى التاريخ . فإذا لاحظنا أن مصر سبقت العراق إلى الوحدة السياسية بنحو ٥٠٠ سنة (١) .

تجلت لنا أول سمة من سمات شخصية مصر السياسية وهى العراقة والسبق الحضارى

---

(١) شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، د . جمال حمدان ، ص ٧٥ .

ولما كانت النظم السياسية الداخلية تنبثق أساساً من الرغبة الصادقة فى حماية المصالح الحيوية للجماعة ، وكانت هذه المصلحة فى مصر ممثلة خلال عصورها السابقة فى ثرواتها الطبيعية فإن هذه الثروات صبغت الشخصية السياسية بسمات معينة :

روى السيوطى فى حسن المحاضرة ، عن شقى بن عبيد الأصبحى قال : « مصر بلد معافاة من الفتن ، لا يريدها أحد بسوء إلا جزعه الله » (١) وعن كعب قال : « لولا رغبتى فى بيت المقدس ما سكنت إلا مصر . قيل : ولم ؟ قال : لأنها بلد معافاة من الفتن ، ومن أرادها بسوء كبّه الله على وجهه » (٢) . فالوحدة الوطنية من أبرز سمات الشخصية المصرية غرستها فى نفوسهم مواسم الزرع والحصاد والفيضان المنتظمة التتابع ، والداعية شتات الأيدى لمصافحتها فى كل حين .

لقد رأى المصريون أن استتباب النظام وهدوء الحياة ، واستقرارها هو المناخ الطبيعى لاستثمار موارد بيئتهم الطبيعية وطاقاتهم البشرية ، فتنازلوا عن بعض حقوقهم الفردية وقدموها هدية لمصلحة الجماعة .

قد شكلت رعاية مصلحة الجماعة جانباً من علاقة المصريين بحكامهم فتوزيع مياه النيل ، وتنظيم جريانه أمر جوهرى فى حياتهم ، والحاكم هو الذى يستطيع تنظيم هذه الأمور ، فمنحوه من السلطة ما يسمح له برعاية المصلحة العامة . وتشابكت عدة عوامل أخرى حددت علاقة المصريين بحكامهم من أهمها : النزعة الدينية فى الشخصية المصرية ففى مصر الفرعونية كان الحاكم إلها بشرا ، وإله موضع إجلال المصريين ، ومن زاوية العاطفة الدينية عند المصريين أراد الإسكندر الأكبر أن يصبغ سلطانه بمشروعية دينية تتجاوب ونوازع الشخصية المصرية .

وبينما قاومت الشخصية المصرية – بأسلوبها الخاص – حكم الفرس والإغريق والرومان تقبلت حكم المسلمين ، على الرغم من تعدد الأجناس الإسلامية الحاكمة . من ولاة تبعث بهم دار الخلافة الإسلامية فى المدينة فدمشق ثم بغداد ، إلى دولة طولونية مستقلة عام ٢٥٤ هـ ثم ولاية عباسية عام ٢٩٢ هـ مرة أخرى إلى دولة إخشيدية مستقلة عام ٣٥٣ هـ إلى أن تصبح خلافة

---

(١) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة . للسيوطى جـ ١ ص ٢١ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢ .

فاطمية تتبعها عدة ولايات عام ٣٥٨ هـ حتى يؤسس بها صلاح الدين الأيوبى « دولة الأيوبيين » سنة ٥٦٧ هـ وتستمر حتى ٦٤٨ هـ .

فعلاقة المصريين بحكامهم المسلمين يسودها نوع من الاقتناع النفسى الذى ينبعث من النزعة الدينية ، فلقد كانت دائماً ترحب بالحاكم الأجنبى متى كان مسلماً ، ومن أجل ذلك لم تجد غضاضة فى قبول الطواونيين والفاطميين والأيوبيين وغيرهم (١) .

وللميراث الحضارى العريق أثر فى علاقة المصريين بحكامهم فإحساس المصريين بقيمة ميراثهم الحضارى وعظمته وواجبهم فى الحفاظ عليه ونقله من جيل إلى جيل جعلهم يجنحون إلى الهدوء النسبى ولا يعرفون التمرد أو الشطط فى المعارضة أو سيطرة الروح الفردية .

وإذا قارنا بين مصر واليونان من هذه الزاوية فإننا نلاحظ أن شعب اليونان ينزع إلى الاضطرابات السياسية والفكرية على حين أن الشعب المصرى لا يوافقه منذ القدم إلا فكرة الحكم الاستبدادى ، فلم يشهد فى عصوره المختلفة أكثر من نوع واحد من أنواع الحكم الفردى الذى ألفه ودرج عليه (٢) .

وليس معنى تعاون المصرى مع حاكمه أنه لا ينزع إلى تولى السلطة أو لا يستطيعها فمنذ بداية عصر الأسرات وكبار الموظفين المصريين فى الدولة ينعمون بمكانة مرموقة إلى جانب فراعنتهم . وكان أكبر لقب هو لقب « دى فرمسيو » أى الأول لدى الملك أو الأول بعد الملك(٣) .

وفى مصر الإغريقية شاركت بعض العناصر المصرية فى إدارة شئون البلاد .

وتبرز شخصية مصر السياسية خلال العصر الإسلامى فى مشاركة المصريين الأقباط فى إدارة البلاد لاسيما الأجهزة التى تعودوا إدارتها وأبدعوا فيها من قبل كالأجهزة المالية والإدارية (٤) .

---

(١) الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول ، د . عبد اللطيف حمزة ص ٢٠ ، ويشاركه الرأى فى تفسير علاقة المصريين بالحكام المسلمين الدكتور عبد المنعم ماجد ، انظر : التاريخ السياسى للدولة العربية جـ ٢ ص ٢٢٢ .

(٢) الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول ، عبد اللطيف حمزة ص ١٥ .

(٣) تاريخ الشرق الأدنى القديم ، د . عبد العزيز صالح جـ ١ ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

(٤) مصر فى عصر الولاة ، د . سيدة الكاشف ص ١١٢ .

ويرتبط حديثنا عن علاقة المصريين بحكامهم الحديث عن طبيعة الثورة المصرية أو أسلوب الشخصية المصرية في ثورتها ، ولقد كانت هذه القضية موضع اهتمام الباحثين في عصور مختلفة ومنهم من اتُّهِمَ المصريين بالجبن والمذلة ورددوا في ذلك عبارات مختلفة منها : ما رواه النويرى قال : « روى أن « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه سأل كعب الأحبار عن طبائع البلاد وأخلاق سكانها فقال : إن الله تعالى لما خلق الأشياء جعل كل شيء لشيء فقال العقل : أنا لا حق بالشام ، فقالت الفتنة . وأنا معك ، وقال الخصب : أنا لاحق بمصر ، فقال الذل : وأنا معك . وقال الشقاء أنا لاحق بالبادية ، فقالت الصحة : وأنا معك [1] » .

« وحكى عن الحجاج أنه سأل « أيوب بن القرية » عن طبائع أهل البلاد فقال : أهل الحجاز أسرع الناس إلى فتنة وأعجزهم منها : رجالها حفاة ، ونساؤها كساة عراة ، وأهل اليمن أهل سمع وطاعة ولزوم الجماعة ، وأهل عمان عرب استنبطوا ، وأهل البحرين نبط استعربوا ، وأهل فارس أهل بأس شديد ، وعز عتيد ، وأهل العراق أبحث الناس عن صغيرة وأضيعهم لكبيرة ، وأهل مصر عبيد لمن غلب أكيس الناس صغاراً وأجهلهم كباراً [2] » .

إن لكل شعب أسلوبه الخاص في المقاومة ، ولقد كان هدف الشعب المصرى دائماً هو المحافظة على ذاته وكيانه الروحى من النوبان أو التشويه ، ولذلك لجأ إلى العنف والقوة عند ما كان قادراً على ذلك ، ولجأ إلى المقاومة الروحية عندما أعياه استخدام القوة المسلحة فاتخذ من التمرد على حاكمه والتهكم عليه والسخرية منه أسلوبا يعبر عن مقاومته وثورته .

ويشهد التاريخ أن المصريين استخدموا هذين اللونين من الأساليب ، ففى عهد بعض الأسر الفرعونية ثار عمال الجبانات الملكية العاملين بطيبة الغربية ، وفى حكم رمسيس الثالث أضرب العمال عدة مرات وخرجوا من قراهم واعتصموا بالمعابد واتجهوا إلى معبد الرمسيون وكان مركز الإدارة ، واضطرت السلطة إلى التسليم بمطالبهم وبلغ من جرأة بعض العمال أن قال للوزير عندما دعاه ليحمل متاع الفرعون : دع الوزير نفسه يحمل متاع الفرعون ويحمل خشب الأرز أيضا إذا شاء [3] .

---

(١) نهاية الأرب ، النويرى ، جـ ١ ص ٢٩٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٩٤ .

(٣) تاريخ الشرق الأدنى القديم ، د . عبد العزيز صالح ، جـ ١ ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

وثورات المصريين ضد الفرس والإغريق والرومان معروفة فى التاريخ .

وفى مصر الإسلامية شارك المصريون فى الثورة ضد بعض الولاة وخاصة عندما كان يمسهم الأمر (١) .

وأحياناً يسلك المصريون سبيلهم إلى الثورة بالمقاومة الروحية كما حدث فى المقاومة الدينية التى خاضتها مصر ضد الرومان فكانوا يلجأون إلى الفرار إلى المعابد والأديرة ويهجرون مزارعهم وقراهم ويترتب على ذلك الإضراب اضطرابات عامة فى الدولة تهز عروش الحاكمين .

فهذه الثورة التى يصفها البعض بأنها سلبية (٢) هى فى الواقع نوع من العناد فى المقاومة يدل على إصرار شديد وإن بدا فى مظهره ذا طابع سلبى لكنه فى الحقيقة إيجابى .

على أن وصف العمل بالسلب وصف غير دقيق فكل عمل إيجاب : إن مفهوم الصفر فى الرياضة الحديثة أصبح يعنى شيئاً بعد إن كان لا يعنى شيئاً فى نظر أصحاب الرياضة القديمة . وإن دور الحركة السالبة فى تيار الكهرباء أساس فى اكتمال الدورة الكهربائية التى تولد الطاقة . وهذه النزعة التى تميز الشخصية المصرية فى ثورتها قد تبدو للآخرين على أنها نوع من الاستكانة ولكنها فى حقيقتها ثورة فإن العناد القائم على الإصرار أصدق فى تحقيق الإرادة الثورية من الحماقة والتهور .

فالشخصية المصرية فى عنادها تعرف طريقها وتتحمل كل العقبات فى سبيل الوصول إلى غايتها راكبة إلى ذلك مركبها الخاص وطريقها المعبرة عن شخصيتها .

وثمة سلاح أخر تستخدمه الشخصية المصرية فى التعبير عن ثورتها وهو السخرية (لقد كانت النكتة المصرية وحدها ترعب الأقوياء حتى حرم الرومان المحامين المصريين من المرافعة فى محاكم الإسكندرية . لأنهم كانوا يفضون من هيبة القضاء الرومانى بالمزاح والدعابة فى أثناء الدفاع وشرح القضايا) .

وسخرت مصر من حكامها الأجانب بالألقاب والكنى فعبد الله بن عبد الملك الذى رفع الأسعار لقب بـ (المكيس) وكافور الأخشيدى كنى بـ (أبى المسك) (٣) .

---

(١) مصر فى عصر الولاة ، د . سيدة الكاشف ص ٩٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠ .

(٣) الشخصية المصرية ، د . نعمات فؤاد ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

تلك سمات الشخصية المصرية فى طابعها الثورى وهى لا تتفق أبداً مع صفات الذلة والاستكانة التى وصفها بها بعض الدارسين ولعل قصر نظرهم فى فهم طبيعة الشخصية أو تعصبهم ضدها أو مقارنتهم طبيعة الثورات فى كثير من البلدان بطبيعة الثورة التى تتميز بها الشخصية المصرية ، كل ذلك دفعهم إلى مثل هذا القول . وربما كان لتأملهم طبيعة السياسة الخارجية أثر فى زعمهم أو توهمهم . فالشخصية المصرية ذات طابع سياسى خاص يحدد علاقاتها الخارجية . وعنوان هذه السياسة هو السلام والدفاع عن الحرية ، وقد أيد تاريخها الطويل هذه الحقيقة التى تكونت من عدة عوامل كان للبيئة الطبيعية أثر واضح فيها .

فالشخصية المصرية لا تنزع إلى الغزو أو الإغارة على غيرها من الجيران الأقربين أو الأبعدين ، فقد تكفلت البيئة الطبيعة بإمداد سكانها بكل ما يحتاجون إليه من وسائل الحياة لأنها تمتعت بقسط وفير من الثراء عرفت به طوال تاريخها القديم والوسيط . وإذا كان هذا الثراء غير دافع إلى الغزو أو العدوان فإنه كان عامل تسكين واستيطان لا من جانب الوفرة فحسب ، بل استجابة لنزعة نفسية هى حب الاستقرار والعيش فى سلام . كما دفع هذا الثراء كثيراً من الرعاة والمجاورين الطامعين فى خيراتها إلى الإغارة عليها فاضطر المصريون إلى القتال دفاعا عن ثرواتهم والحفاظ عليها من الطامعين كما لعب موقعها الحساس دوراً فى تشكيل أسلوب سياستها الخارجية فكانت على مر التاريخ مدافعه أكثر منها مهاجمة .

ولعل هذه الحقيقة بالإضافة إلى ما سبق كانت فى اتهام بعض الباحثين لمصر بالجبن أو الاستكانة .

هذه أهم معالم شخصية مصر السياسية التى تشكلت من عناصر الطبيعة والإنسان والتفاعل بينهما وانعكست على سلوكها السياسى وما يدور فى فلكه وسنرى آثار ذلك كله فى الأدبيين الفاطمى والأيوبى .

الشخصية الاقتصادية :

تميزت شخصية مصر الاقتصادية طوال العصور القديمة والوسطى بالاكتفاء الذاتى . روى الكندى : « أجمع أهل المعرفة أن أهل الدنيا مضطرون إلى مصر يسافرون إليها ويطلبون

الرزق بها وأهلها لا يطلبون من غيرها ولا يسافرون إلى بلد سواها حتى لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا لغنى أهلها بما فيها عن سائر بلاد الدنيا [1] » .

وقال سعيد بن عفير : « كنت بحضرة المأمون حتى قال وهو فى قبة الهواء : لعن الله فرعون إذ يقول : (أليس لى ملك مصر) لو رأى العراق ؟! فقلت يا أمير المؤمنين : لا تقل هذا فإن الله عز وجل قال : (ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) . فما ظنك يا أمير المؤمنين بشىء دمره الله وهذا بقيته ؟ قال : ثم قلت : لقد بلغنى أن أرضاً لم تكن أعظم من مصر وجميع أهل الأرض يحتاجون إليها وكانت الأنهار بقناطر وجسور وتقدير حتى إن الماء يجرى تحت منازلهم وأفنيتهم ، يحبسونه متى شاءوا ويرسلونه متى شاءوا وكانت البساتين بحافتى النيل من أوله إلى آخره ما بين أسوان ورشيد إلى الشام متصلة لا تنقطع ، ولقد كانت الأمة تضع المكتل على رأسها فيمتلىء مما يسقط من الشجر ، وكانت المرأة تخرج حاسرة لا تحتاج إلى خمار لكثرة الشجر [2] .

وظل الثراء عنوان شخصية مصر الاقتصادية على مدار السنين فى العصور القديمة والوسطى إلا ما ندر .

وتعدد مصادر الثروة ميزة أخرى فى شخصية مصر الاقتصادية ، وأهم مصادر ثروتها هو نتاج بيئتها الزراعية ، فعلى الرغم من أن مصر عرفت مصادر أخرى للثروات [3] كالتجارة والصناعة وبعض المعادن لكنها كانت محدودة بالنسبة للثروة الزراعية .

وحقيقة أن مصر عرفت فى بعض فترات تاريخها ازدهاراً تجارياً ، لكنها لم تصل فيه إلى درجة تتحدى به قوة الزراعة فى التأثير على الإنتاج . ومن ثم يرى بعض الباحثين أن مصر لم تستغل موقعها الفريد كما كان ينبغى[4]

وكان لغلبة الثروة الزراعية على موارد مصر آثار عدة فى تكوين شخصيتها لعل أهمها ملكية الأرض وعلاقة المصرى بها ، وقد تطورت هذه العلاقة على مراحل :

---

(١) فضائل مصر ، الكندى . ص ٤٥ .

(٢) نهاية الأرب ، للنويرى ، جـ ١ ص ٣٥٤ .

(٣) راجع فكرة ثراء مصر من الذهب فى كتاب مصر أصل الحضارة ، سلامة موسى .

(٤) مصر ورسالتها . حسين مؤنس ص ١٠ .

فقبل العصر الفرعونى كان النظام المتوقع هو ملكية الأرض بصورة جماعية عن طريق المشاع .

ولم تعرف مصر نظام العبودية بالمعنى الذى عرفته أوربا ، وإنما عرفت النظام الإقطاعى الذى يقوم على احتكار أقلية قوية لملكية الأرض الزراعية ، الريف ، ثم غلبة وتسلط المدن على هذا الريف ، ثم سيطرة الحكم المركزى على الجميع بقوة ، وذلك عن طريق اعتبار كل أرض البلد ملكا قانونيا للدولة ممثلة فى الحاكم فرعون أو السلطان ، والفلاح أداة « إنتاج بشرية »(١) .

وفى العصر البطلمى كان الملك هو المالك نظرياً ، وبرغم ذلك فإنه لم يستحوذ على الأرض بمفرده . فهناك « الضياع » وهى الأرض التى يتخلى الملك عن ملكيتها لتكون فى حوذة أعيانه ، وهناك أرض أخرى فى صورة إقطاعات لبعض الجنود المقيمين فى مصر الذين عرفوا باسم أرباب الإقطاعات (٢) .

وتأخذ الصورة شكلا آخر فى ظل الدولة الرومانية ، ففى القرن السادس الميلادى ترى أن الأرض العامة لا وجود لها وقتئذ ، وأن سكان مصر ما بين نبلاء – أشبه بنبلاء الإقطاع – وفلاحين أنصاف عبيد(٣) .

أما فى مصر الإسلامية فقد نهى « عمر بن الخطاب » جنوده بمصر عن الاشتغال بالأرض زراعة أو امتلاكاً وأوشك أن ينكل برجل خالف أمره (٤) .

ثم حدث تطور فى نظام ملكية الأرض خلال العصر العباسى فمنذ عصر الرشيد ١٧٠ هـ : ١٩٣ هـ اتبع الخلفاء العباسيون سياسة إقطاع بعض أقاليم الدولة لبعض الشخصيات ، وقدم « المعتصم » إقليم مصر إقطاعاً لقائده التركى « أبى جعفر أشناس » سنة ٢١٩ هـ ثم أذن له فى توليه الحكم بنفسه (٥)

---

(١) شخصية مصر . دراسة فى عبقرية المكان ، د . جمال حمدان . ص ١٣١ .

(٢) مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، دراسة فى انتشار الحضارة الهيلينية واضمحلالها . هـ ايدرس بل ص ٥٩ .

(٣) المرجع السابق ص ١٤٨ .

(٤) فتوح البلدان وأخبارها . لابن عبد الحكم . ص ١١١ .

(٥) مصر فى عصر الولاة د . سيدة الكاشف ص ٣٨ .

والنظام الإقطاعى فى الشرق كان يختلف اختلافا كبيراً عنه فى الغرب ، فالإقطاع الأوربى كان يتوارث فى أسرة صاحب الإقطاع وفق تقاليد وراثية معروفة ، أما فى الشرق فلم يكن من حق صاحب الإقطاع أن يورث إقطاعه ، كذلك كان السكان فى الغرب يقطعون مع الأرض بعكس النظام فى الشرق (١)

وفى ظل الدولة الأيوبية أخذ الإقطاع صفة جديدة دخل فى كيانها العنصر الحربى ولكنه ظل مخالفا - أيضا - للإقطاع الأوربى ، فالإقطاع فى العصر الأيوبى يتلخص فى انتفاع الجند بدخل الإقطاعات المختلفة من غير استيلاء على الأرض للإقامة فيها أو زراعتها ، ومن غير أن يكون لهم حق الوراثة فى الانتفاع بها .

ومن سمات شخصية مصر الاقتصادية شكواها الدائم من النظام الضريبى وجباية الأموال ، وإن اختلفت فى شكلها وأسمائها ومقاديرها ، لكنها كانت بصورة عامة محط سخط الناس .

وفى العصر البيزنطى كان حاكم مصر يقدر الضرائب على أساس المعلومات التى يحصل عليها من الحكام المحليين ، ولكن التنظيم الضريبى فى مصر الرومانية عموما أثر فى تكوين شخصيتها من عدة طرق ، فقد امتاز هذا النظام بالتعقيد الشديد وه البيروقراطية » الكاملة ، وما يتبع ذلك من آفات اجتماعية كالنفاق والرشوة إلى غير ذلك .

وفى مصر العربية سار التنظيم الضريبى على نمط قريب من النظام الرومانى إلا فى المعاملات الإنسانية أما فى هيكل التنظيم فكان معظمه قريب الشبه بما كان فى العصر السابق عليه .(٢) وكانت المكوس بابا مفتوحا أمام الولاة لفرض الضرائب المتعددة الأشكال والألوان .

وفى العصر الفاطمى كثرت الضرائب غير المباشرة وزيد بعضها نظراً لقلة الخراج . وقد ألغى « صلاح الدين الأيوبى » كثيراً من هذه المكوس يقول ابن إياس : « أمر صلاح الدين بإسقاط المكوس عن كل سنة ما يفوق عن مائة ألف دينار » (٣)

هذه أهم ملامح شخصية مصر الاقتصادية وقد أثرت فى الشخصية الأدبية من زاويتين : إحداهما مباشرة والأخرى غير مباشرة أما التأثير المباشر على أدبها فقد ظهر فى العوامل

(١) المرجع السابق . ص ٢٨ .
(٢) مصر فى عصر الولاة ، د . سيدة الكاشف ص ٤٣ ، ٤٤ .
(٣) بدائع الزهور فى وقائع الدهور . جـ ص ٥٦ طبعة كتاب الشعب رقم ٨٧ .

التى أحاطت برقيه وازدهاره فلولا ثراء مصر ما امتدت أيدى حكامها بالعطاء والتشجيع ، وما أتاها صفوة العلماء والأدباء من شتى البقاع . وقد أثر هذا الثراء فى مضمون الأدب وشكله ، فالفحش والمجون وبعض أغراض شعرية أخرى تتأثر بالثراء ، كما لا يمكن أن ينفصل الأسلوب الأدبى انفصالا تاماً عن أسلوب الحياة العامة التى نبت فيها .

أما التأثير غير المباشر فقد تمثل فى العوامل والظروف الاقتصادية التى شكلت بعض سمات الشخصية المصرية بصورة عامة وبالتالى انعكست على الأدب باعتباره مرآة لها ، وأبرز هذه العوامل عاملان هما : الثراء وأسلوب جمع الضرائب فى كثير من العصور ، ومن الممكن أن يكون عامل الثراء واحداً من الأسباب التى حببت المصرى فى الاستقرار وحددت علاقته بحكامه فى الداخل وبغيره من الشعوب فى الخارج .

ولا شك أن لهذه السمات آثارها فى الأدب السياسى وفى أدب الرحلات ، وقد يكون لأسلوب جمع الضرائب وما اقترن به من نظم معقدة أثر فى بروز روح السخرية فى الشخصية المصرية .

الشخصية الاجتماعية :

السمات الاجتماعية لشخصية أى مجتمع من المجتمعات خاضعة لقانون التطور المستمر الذى قد يستبعد بعضها أو يلبسه ثوباً جديداً أو يضيف إليه مظاهر جديدة ، وأريد هنا أن أوضح أهم السمات العامة التى تميز شخصية مصر الاجتماعية وهى :

١ – التمسك بالموروث والحفاظ عليه .

٢ – التلاحم الأسرى .

٣ – النزعة الدينية .

التمسك بالموروث والحفاظ عليه :

الشخصية المصرية مشدودة فى تحركها بميراث ضخم ، ولكنه لا يعوقها عن ممارسة التطور ولا يقف حائلا دون ابتكارها نظمها الداخلية ، أو انفتاحها على النظم الخارجية ، وإنما يقوم هذا الميراث بعملية اختيار وتوازن واختبار لأى تغيير اجتماعى ، فقانون الطفرة غريب عليها ولا تقبله ، وقانون التدرج – عندها – لا يخضع لعنصر الزمان فحسب ، بل والمسير

والاختبار والاقتناع ثم التكيف وما كان لها أن تقبل ظاهرة ما قبل أن تدمغها بطابع مصرى لتحمل جواز سفر عبورها إلى حصيلة المصريات ، ومن أمثلة ذلك أن الشخصية المصرية ترفض المجوسية وتتقبل المسيحية بدافع من فطرتها الدينية إلى اعتناق الشرائع السماوية ، وما كادت تعتنق المسيحية حتى تبتدع الرهبنة ، وهى ظاهرة تتفق والمؤثرات السياسية فى الشخصية المصرية(١) .

وتأخذ مصر من الحياة الفاطمية كثيراً من المظاهر الاجتماعية التى تتفق مع الطبيعة المصرية كالمهرجانات والاحتفالات بمختلف أنواعها ، وتبدع مصْر فى المبالغة ، والإسراف فى التأنق ، وتجسيم صور هذه المظاهر بينما لا يعنيها أن تشغل بالها فى البحوث العقائدية أو الأمور الباطنية التى حواها المذهب الشيعى .

ولقد أدى احتفاء الشخصية المصرية بموروثها الاجتماعى إلى تقديسها بعض المظاهر الاجتماعية كتقدير الطبقة الحاكمة تقديراً ليس مرده إلى الإيمان بالتعاون الصادق مع الحاكمين ، فربما كان خوفاً أو مداراة أو غير ذلك .. وكاعتبار التفاوت الطبقى عنصراً هاماً فى العلاقات الاجتماعية ، لاستنادا إلى معايير مادية محضة بل قد يكون الدين أو العلم أو الأدب أساساً أعظم شأناً من الجاه أو الثراء .. وربما كان لتمسك الشخصية المصرية بالموروث أثر فى شيوع نزعة بيروقراطية تولدت ونمت خلال الحكم الرومانى الذى أحكم فيه « دقلديانوس » بأجهزته العديدة صمام الرقابة الشديدة على شتى أنظمة الحياة المصرية مما أدى إلى شيوع ظواهر الخوف والتجسس وعدم الثقة بين المواطنين (٢) .

التلاحم الأسرى :

تستمد الأسرة المصرية قوة تماسكها من زاويتين هما : مكانة المرأة المصرية ، ومن وشائج القربى بين مختلف أفراد الأسرة . أما المرأة فمكانتها عند المصريين القدماء أشهر من الحديث عنها (٣) . ومكانة المرأة المصرية ليست قيمة اجتماعية فحسب ، بل هى انعكاس لدوافع

---

(١) سنرى آثار هذه النزعة فى ظهور التصوف الإسلامى ، وهذا التصوف له إبعاد كثيرة فى أدب مصر خاصة فى العصر الأيوبى .

(٢) مصر من الإسكندر حتى الفتح العربى . هـ أيدرس بل ص ١٧٦ .

(٣) راجع المرأة فى مختلف العصور . أحمد خاكى . والمرأة فى القرآن الكريم عباس العقاد .

فطرية قوية تحكمها غريزة الجنس عند الرجل المصرى ، ثم هى سكن عاطفى تعبر عنها قوة عواطف الرجل المصرى ، وأخيراً هى مظهر اجتماعى توارثته الشخصية المصرية منذ أزمان بعيدة . لقد طلب ملك بابل من « أمنحوتب » أن يزوجه بمصرية فاعتذر « أمنحوتب » قائلا : « لم يسبق أن أرسلت أميرة مصرية إلى أى إنسان » . فعاد البابلى وألح عليه أن يتخير له أى فتاة من قصره ويرسلها إليه باعتبارها أميرة من بيته صونا لكرامته بين شعبه (١) .

وقد أثارت مكانة المرأة المصرية دهشة بعض الدارسين القدامى ، وربما لم يعجبهم تدليل المصريين لنسائهم فوصفوهم بالبلادة أو البرود (٢) .

أما الوشائج الأسرية الأخرى فأبرزها قرابة الدم ، وقد قامت الأسرة المصرية على صلة الدم ثم أخذت تشمل جميع الأفراد الذين يعيشون فى كنف رب الأسرة حتى الأصهار والعتقاء والحظايا وأولادهم الخدم . وزاد رباط الإسلام المتين من ترابط النظام الأسرى فتجدد الثوب الذى لبسته الشخصية المصرية بلبوسها ثوب الإسلام .

وقد اتخذ العقاد من هذه النزعة أساساً لفهم الجانب الثورى فى الشخصية المصرية فهو لا يستطيع أن يفهم كيف يكون المصرى محافظاً شديداً فى المحافظة ثائراً متأهباً للتمرد إلا إذا فهمنا حبه للأسرة وحبه من أجل ذلك للموروثات والتقاليد ، فهو محافظ كما تحافظ جميع الأسرات على تراثها ، وهو من أجل المحافظة على التراث مستعد للثورة لصيانة موروثاته وتقاليده ..

« إن المصرى لينسى كل شىء إلا وشائج الرحم وآداب الأسرة وقد يسف المجرم إسفاف الخبث والنذالة أو يسف المسكين إسفاف الضعة والمتربة ، لكنه يظل فى صميم نفسه ذلك الخلف المنحدر من أجيال وراء أجيال ، عاشت جميعاً فى ظل الأسرة ودانت جميعاً بآداب العرف الاجتماعى والعلاقات البيئية والأخلاق المصطلح عليها » (٣)

---

(١) تاريخ الشرق الأدنى القديم . د . عبد العزيز صالح . جـ ٠ ص ٢١٦ .

(٢) خطط المقريزى . جـ ١ ص ٨٧ طبعة مكتبة إحياء العلوم لبنان .

(٣) سعد زغلول . عباس العقاد . ص ٢٠

النزعة الدينية

الشخصية المصرية نزاعة للتدين ولها ميل فطرى إليه ، ظهر فى استيحائها صوراً رائعة فى فنونها وآدابها من معتقداتها الدينية خاصة فيما قبل ظهور الشرائع السماوية ، بل إن أدبها الفرعونى انعكاس صادق لما كانت تدين به من معتقدات . والنزعة الدينية فى المصريين تنبعث من البحث عن وسيلة لاستمرار اللذات فمن تشبث المصريين بالحياة نبتت فكرة الخلود عندهم وجندوا طاقتهم الفنية والمادية لتحقيقها . إن الموت الذى يكرهونه إنما هو معبر إلى الضفة الأخرى حيث تتواصل حياتهم كما ألفوها بالتحام (١)

وعندما ظهرت المسيحية سارعت إليها مصر فى القرن الأول الميلادى وأخذت تنتشر تدريجياً خلال القرن الثانى إلا أنّ الاباطرة الوثنيين ناصبوها العداء ، واضطهدوا المصريين فقاوم المصريون ذلك الاضطهاد بقوة وإصرار .

وبدأت الكنيسة القبطية تقويمها الذى سمته تقويم الشهداء بالسنة الأولى من حكم دقلديانوس عام ٢٨٤ وبعد أن اعتنق الأباطرة الدين المسيحى فى بداية القرن الرابع الميلادى أخذوا يقحمون أنفسهم فى النزاع حول طبيعة المسيح وصفته ، ذلك النزاع الذى نشب بين كنيستى الإسكندرية وبيزنطة ، « . بلغ حدته فى منتصف القرن الخامس الميلادى ، وقد عقد الأمبراطور البيزنطى من أجل ذلك مجمعاً دينياً فى (خلدونية) بآسيا الصغرى سنة ٤٥١ م . وأقر هذا المجمع بمذهب الكنيسة القسطنطينية القائل إن للمسيح طبيعتين ، وقررحرمان بطريرك الإسكندرية من الكنيسة وتكفير من يقول بالطبيعة الواحدة . ولم يقبل مسيحيو مصر هذه القرارات وأطلقوا على أنفسهم الأرثوذكسيين وهى كلمة يونانية معناها أتباع الديانة الصحيحة .

ولا تلبث الشخصية المصرية أن تتكشف حقيقة الإسلام فتعتصم به وإذا بكثير من دور العبادة القديمة تتحول إلى مساجد فى عصر الخليفة العباسى المعتصم .

---

(١) مصر فى عصر الولاة . د . سيدة الكاشف ص ٩ .

ويشارك المهرة من نساجى مصر فى صنع الكسوة الشريفة [1] منذ الفتح وأصبح يوم إرسالها إلى الحجاز مهرجاناً دينياً تشارك فيه الطوائف الرسمية والشعبية .

حصيلة من العادات والتقاليد :

ورثت مصر مجموعة من العادات والتقاليد التى تعبر عن فكرها فى شتى عصورها ومعتقداتها فى الحياة ، فبعض العادات السائدة الآن فى مجتمعنا المصرى والتى لا وجود لها فى غيره من المجتمعات ، كعادة تلقين الميت ، وسعف النخيل ، وليلة الخامس عشر ، والأربعين هى عادات فرعونية بقيت فى ظل الإسلام وما زلنا نمارسها مسلمين ومسيحيين (٢)

وتلقى بعض البرديات أضواء باهرة على الحياة العائلية السعيدة فى العصر الرومانى وما يتخللها من حفلات خاصة بأعياد الميلاد ، وولائم الغذاء والعشاء ومناسبات اجتماعية أخرى (٣) .

وكان للأقباط أربعة عشر عيداً منها سبعة كبار وسبعة صغار أما السبعة الكبار فهى عيد البشارة ، وعيد الزيتونة ، والفصح وخميس الأربعين ، وعيد الخميس ، والميلاد ، والغطاس ، أما الصغار فهى : عيد الأربعين ، وخميس العهد ، وسبت النور . وأحد الحدود ، والتجلى وعيد الصليب . وقد أفاض « القلقشندى » فى الحديث عن هذه الأعياد [4] . واحتفلت مصر الإسلامية بعيد الفطر وعيد النحر . وكان ثمة أعياد أخرى يمارسها المصريون جميعاً لم تكن دينية بقدر ما كانت قومية مثل وفاء النيل . ثم بدأت الأعياد القومية تتزايد فأصبح عيد الغطاس فى ظل الدولة الإخشيدية من أعظم الاحتفالات التى اشترك فى إحيائها المسلمون

---

(١) عنى الخلفاء الراشدون منذ الفتح العربى لمصر باتخاذ كسوة من المنسوجات التى كانت تصنع بها فيذكر الأزرقى : إن عمر بن الخطاب كسا الكعبة القباطى من بيت المال وكان يكتب إلى مصر لتصنع له فيها وكذلك فعل عثمان من بعده فلما كان معاوية بن أبى سفيان كساها كسوتين كسوة عمر القباطى وكسوة ديباج فكانت تكسى الديباج يوم عاشوراء وتكسى القباطى فى آخر شهر رمضان .

راجع مصر فى عصر الولاة . د . سيد كاشف : ص ١٦١ .

(٢) الشخصية المصرية . نعمات أحمد فؤاد .

(٣) مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى . هـ . أيدرس بل ص ١٢٦ .

(٤) صبح الأعشى . جـ ٢ ص ٤١٥ وما بعدها : نسخة دار الكتب الخديوية . المطبعة الأميرية ١٩١٣ .

والأقباط ، وقد وصف « المسعودى » الذى زار مصر ليلة الفطاس فى عهد الإخشيديين سنة ٣٣٠ هـ فقال : « كان لهذه الليلة بمصر شأن عظيم عند أهلها وهى ليلة العاشر من كانون الثانى ترى الناس فيها فرحين يظهرون كل مأكل ومشرب ويخرجون بملابس الزينة .

وكان للدولة الفاطمية فضل كبير فى إخصاب العادات والتقاليد المصرية وتزويدها بعادات جديدة ، ففى عهدهم ، كان يبدو الشعب مبتهجاً بأعياده حيث كانت تقدم الموائد وتنظم الملاهى وتضاء الشوارع والحوانيت ويحمل الفقراء فى أيديهم الفوانيس مقابل إعطاء كل منهم درهماً كما تضاء المساجد بالمشاعل . وكانت الحلوى تكثر فى الأعياد فيبتهج الناس إلا فى يوم عاشوراء لأن الفاطميين اعتبروه يوم حزن وفيه يخرج المنشدون إلى الأزهر ويرددون الأناشيد المحزنة فى « رثاء الحسين بن على » .

الشخصية الثقافية :

تتميز شخصية مصر الثقافية بسمات أهما ما يلى :

أولا : أنها بؤرة حضارية تجمعت عندها أشعة الفكر الإنسانى ، منها ما شب وترعرع فى أحضان الطبيعة المصرية ، ومنها ما وفد إليها مع الوافدين من مختلف الأجناس .

ثانيا : أخذها - دائما - بوسائل اختيارها الثقافى : فلم ترفض الشخصية المصرية أى لون من ألوان المعرفة الإنسانية التى أتيح لها أن تتصل بها ، وإنما كانت تستخدم وسائلها الخاصة فى انتقاء ما يلائمها من هذه الثقافات ولعل أبرز مقاييس الاختيار :

(أ) الميل إلى التبسط

(ب) تغلب النزعة الفنية .

ثالثا : وبعد أن تختار ما تختار تصبغه بطابعها المصرى ، بل وتشكل حضارتها القديمة بطابع يتجلى فيه تأثير اختيارها الجديد .

البؤرة الحضارية :

عرفت مصر نوعين من الحضارات : حضارة ولدت ونمت فى أرضها ، وأخرى أتت إليها وامتزجت بالحضارات الوليدة .

وقد مرت حضارتها بطورين ، تولت فى الطور الأول زعامة الفكر ، وتحملت فى الطور

الثانى مسئولية الحفاظ على الميراث الحضارى الإسلامى خلال العصور الوسطى . فهى تبدو حاملة فى كفها اليمنى ريادة العالم القديم وفى ، اليسرى ميراث الفكر العربى الإسلامى بعد أن امتزج بحضارات مختلفة خلال القرنين الثانى والثالث للهجرة .

ففى تاريخ مصر القديمة تطالعنا كلمات عرفت أول ما عرف فى مصر فالكتابة والعمارة والحكمة ورسم الخرائط المساحية وغيرها عرفت للمرة الأولى فى مصر وفيها بدأ الانقلاب الرئيسى الثانى فى مجالات الحياة المادية للإنسان القديم وهو معرفة الزراعة بعد معرفته سر إيقاد النار ، كما حدث فيها التطور المعنوى الثانى لثقافات الشعوب القديمة وهو الكتابة بعد معرفة بدايات الفنون ، ونضجت فيها ثقافات وتشريعات متكاملة ، وعقائد أخروية واضحة وأسس للعلوم (١) .

ومن خلال محاولة استيطان الإغريق فى مصر تلتقى حضارتهم بالحضارة المصرية القديمة ، وتبزغ شمس الإسكندرية تسطع وتعلو لتصبح عروس عصرها ، وتقدم للوجود جديداً من الفكر والمعرفة .

وتتحدث المصادر التاريخية والحضارية عن روعة مكتبة الإسكندرية وما حوته من ذخائر الكتب التى كان من بينها الأصول الرسمية لمؤلفات « إيستيلوس » و« سوفوكليس » و« يوريجيدس» كما حوت مكتبة الإسكندرية مؤلفات « هوميروس » وكان اهتمام الحكام البطالسة بهذه المكتبة اهتماماً بالغاً (٢) . ولا شك أنها أثرت فى الفكر المصرى ، وهو فكر نزاع إلى حب المعرفة (٣).

وشاهدت مصر فى عصريها البطلمى والرومانى ألواناً من فنون هذين الشعبين كالمسرحيات الكلاسيكية والكوميدية والمهرجانات الرياضية والرقص والغناء والموسيقى والألعاب البهلوانية وغيرها من ألوان الفنون الشعبية والرسمية .

---

(١) تاريخ الشرق الأدنى القديم جـ ١ د . عبد العزيز صالح . ص ١ .

(٢) مصر من الأسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، د . أيدرس . بل ص ٧٣ .

(٣) ظلت هذه المكتبة قائمة بالإسكندرية خلال العصرين اليونانى والرومانى ويذهب بعض الباحثين إلى القول بأن المسلمين فى بداية الفتح العربى أحرقوا هذه المكتبة لما فيها من علوم لا تتفق والإسلام . وواضح أن هذا الزعم طعن مباشر فى الإسلام وفى العقلية العربية ، وقد تصدى لتفنيد هذه المزاعم بعض المستشرقين والعرب .

راجع : مصر فى عصر الولاة . د. سيدة الكاشف . ص ١٨٤ .

ومع الشعاع الأول من فجر الإسلام فوق ربوع وادى النيل يعلو مسجد « عمرو بن العاص » أول جامعة إسلامية بمصر يلتقى فيه العلماء والفقهاء ويلجأ إليه الناس للاستفتاء ، ويفد إليه الطلاب ، وفيه يتخرج العلماء ينشرون دين الله لا فى مصر وحدها بل وفى أفريقيا والمغرب والأندلس . وقد ضمت الجماعات الأولى الوافدة مع الفتح العربى عدداً من الصحابة والتابعين أصبحوا نواة الثقافة الإسلامية بمصر وقد بدأوا بالدراسات الدينية من تعليم المسلمين قراءة القرآن وما يتصل به من تفسير أو بيان أسباب التنزيل .

ثم توافد العلماء المسلمون إلى مصر وأقاموا بها وأسسوا مدارس فى مختلف العلوم العربية والإسلامية . ومن هؤلاء « أبو محمد عبد الله بن هشام بن أيوب المغازى » راوى السيرة النبوية (١) . وسجل « ابن النديم فى الفهرست أسماء طائفة كبيرة من المصنفات فى علم الحديث التى تولاها العلماء بالجرح والتعديل . وقد أجمعوا على صحة ما دونه « على بن أبى طلحة المصرى » عن « ابن عباس » وفى ذلك يقول « ابن حنبل » بمصر صحيفة فى التفسير لابن عباس رواها ابن أبى طلحة . لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً (٢) . وذكر « ابن عبد الحكم » فى كتابه « فتوح مصر » أكثر من ثمانين اسما من الصحابة والتابعين الذين روى عنهم المصريون أحاديث الرسول (صلعم) وتحدث الكندى فى فضائل مصر – وكل من أخذ عنه من الكتاب – عن الحركات العلمية المتصلة منذ الفتح وما تبع ذلك من تأسيس المدارس العلمية واهتمام حكام مصر بتقديم الوسائل المساعدة فى نشر الثقافة العربية والإسلامية كتأسيس المدارس والمساجد وكان من أعظمها شأناً الجامع الأزهر ، ودوره فى تاريخ مصر الحضارى غير مجهول .

وسايرت حركة النهضة الفكرية والحضارية فى مصر الإسلامية – حركتان أساسيتان : كانت الأولى فى بغداد ، والثانية فى المغرب والأندلس . وأثمر التنافس بينهما نباتاً طيباً طمعت به الحضارة المصرية .

وحين نبحث فى غضون القرون الوسطى عن منابع الثقافة المصرية نجد أن أهمها يومئذ ثلاثة.

---

(١) البداية والنهاية ، أبو الفدا الحافظ بن كثير ، أخبار عام ٢١٨ هـ .

(٢) الاتقان للسيوطى . جـ ٢ ص ٨٨ .

أولاً : مدد من الشرق مركزه العراق والرحلة بينه وبين مصر كانت متصلة طوال العصور الوسطى . والعراق بلاد قريبة من فارس ، وقد غلبت على فارس النزعة الفلسفية ، ومن أجل ذلك نقرأ فى تراجم بعض العلماء قولهم : وقرأت المعقولات فى بلاد العجم وفى كتب التاريخ شواهد كثيرة تدل على نزوع هذه البلاد إلى الفلسفة .

ثانيا : مدد من الغرب والأندلس وهى بلاد غلبت عليها الرواية والحفظ والنقل . والغالب على هذا المدد أنه كان يأتى إلى مصر عن طريق الإسكندرية ، ومن أجل هذا سميت الإسكندرية « باب الغرب » .

ثالثاً : مدد من طبيعة البلاد المصرية نفسها وهى بلاد غلب عليها اصطناع الذوق فيما تأخذ من علوم المشارقة والمغاربة جميعاً . تلك هى بذور الشخصية المصرية العلمية فى القرون الوسطى (١) .

لقد تبادلت شخصية مصر الثقافية مع غيرها من مراكز الحضارة الإسلامية عملية الأخذ والعطاء ، وأسهمت هذه العمليات فى تكوين شخصيتها الحضارية وهى أقرب الجوانب تأثيراً فى شخصيتها الأدبية .

محك الاختيار :

تلاطمت فى لجة الحضارة المصرية أمواج ثقافات ، ونظرت مصر بعين بصيرة إلى هذا الخضم المتلاحق من المعارف الإنسانية لتحدد موقفها وتختار ما يلائمها ، يحدوها فى ذلك عاملان رئيسيان يتحركان دائما فى محور شخصيتها عموماً ، وفى الجانب الفكرى منها خصوصاً ، وهذان العاملان هما : الميل إلى التبسيط ، وتغليب النزعة الفنية على النزعة العقلانية .

ويبدو تأثير العامل الأول فى موقف مصر من الثقافات المستوردة فخلال العصرين اليونانى والرومانى تعرفت مصر على طائفة من الفلاسفة والمناطقة والسوفسطائيين والجدليين ،

---

(١) الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول . د . عبد اللطيف حمزة ص ٢٣ .

وضمت مكتبة الإسكندرية أفكار هؤلاء فيما ضمته من كتب ، ووفد إلى مصر أفلاطون وغيره من الفلاسفة اليونانيين ، ولا ريب أن مصر تعرفت على هذا الفكر ، إن لم يكن خلال الاحتكاك المباشر به في لغة نويه ، فمن خلال معرفتها باللغة العربية معرفة مكنتها من هضم جميع ما كتب بها .

وقد كانت ترجمة « أرسطاطاليس » معروفة للمصريين غير أن المسلمين في مصر لم ترق لهم فلم يعتنقها إلا أفراد قلائل حتى إن « سيبويه المصرى » أحد المعتزلة كان يصيح ذات يوم ويقول : « الدار دار كفر ، حسبكم أنه ما بقى في هذه البلدة العظيمة أحد يقول القرآن مخلوق ، إلا أنا وهذا الشيخ » « أبو عمران موسى بن رباح » فقام أبو عمران يعدُو حافياً خوفاً على نفسه من بطش الناس ، لأنهم كانوا لا يحبون كثرة اختلاف الآراء في أمور الدين ، لهذا لم ينتشر علم المنطق بين مسلمي مصر على نحو ما انتشر في الأقطار الإسلامية الأخرى التي كثرت فيها المحاورات والمناظرات وتعددت فيها الفرق الإسلامية ، فاستعانوا بعلم المنطق في جدلهم ومناظراتهم بخلاف المصريين الذين يميلون إلى الراحة من عناء التفكير العميق فلم تظهر عندهم نظريات فلسفية أو مسائل علمية معقدة (١)

فآراء الشيعة ومذهب الخوارج وتعاليم المعتزلة لم تجد قبولا عند المصريين بالرغم من أنه وجد بين المصريين من كان علوى الهوى ، وجاء دعاة الشيعة يدعون للأئمة الشيعيين ، ودخل الخوارج مصر مع عبد الرحمن بن جحدم والى مصر من قبل ابن الزبير سنة ٦٤ هـ .

ولكن المصريين عرفوا منذ قديم الزمان أن الآراء الجديدة تستهويهم في أول الأمر ، ثم سرعان ما يعودون إلى أنفسهم فيطرحون من هذه الآراء الجديدة ما لا يتفق مع مزاجهم وتقاليدهم ، ويمصرون ما يتفق مع بيئتهم من هذه الآراء ، وهذا ما حدث بعد الإسلام .

فالمصريون قبلوا الدين الإسلامى لما فيه من توحيد وما في تعاليمه من يسر وبساطة ، ولكن عندما بدأ أصحاب الفرق يعقدون ويفلسفون هذه التعاليم رفضها المصريون ولم يقبلوا أن يتحولوا عن التعاليم السمحة البسيطة التي تتفق مع البيئة المصرية ، وهي التعاليم التي حملها الصحابة والتابعون إلى مصر ، وربما كان هذا هو السبب في أن مصر ظلت حصنا لأهل

---

(١) الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربى حتى آخر الدولة الفاطمية د . محمد كامل حسين . ص . ٦٣ ، ٦٤ .

الجماعة والسنة طوال عصورها الإسلامية حتى فى العصر الفاطمى الذى عرف بشدة عدائه لأهل السنة والجماعة ، ومعنى هذا أن تاريخ مصر منذ أقدم العصور يثبت أن الآراء المتطرفة والتعاليم الدخيلة المعقدة والدعوات الأجنبية لا تجد قبولا من المصريين بل كثيراً ما سخر منها المصريون وتهكموا بها كما فعلوا مع تعاليم الشيعة الإسماعيلية فى العصر الفاطمى(١) .

وتأثير العامل الثانى وهو تغليب النزعة الفنية على النزعة العقلانية حدا بالشخصية المصرية إلى اختيار ميدانها الثقافى فأكثرت من إنتاج الفنون الجميلة والآداب وأبدعت فيهما وصبغتهما بطابعها المصرى ، والآثار الفرعونية والمسيحية والإسلامية ناطقة بذلك .

وربما كان إبداعها فى (العلوم البحتة) كالطب والهندسة ، والفلك وتفوقها فى هذه الميادين إبان العصور القديمة مرتبطاً بنزعة روحية أكثر منها نزعة إلى ممارسة البحوث العقلية والتجريبية . إن فكرة البعث والخلود وهى قيم روحية محضة كانت وراء كل تقدم فى فن البناء والتحنيط وغيرهما .

ولم يكن للجدل فى مصر سوى ظل خفيف ، ولم يكن جدلا قائما على الأدلة المنطقية ، بل كان يعتمد على الحاسة اللغوية أو الذوق المصرى ، حيث نرى المصريين يبدعون فنونا جديدة فى علم البديع كما سنوضحه فى تأثير الشخصية المصرية فى الأدبيين الفاطمى والأيوبى .

التمصير :

من خصائص مصر الحضارية تلوينها الحضارات التى أخذتها عن غيرها من الأمم والشعوب بلون خاص ، وتقوم مصر بهذه العملية على مرحلتين تبدأ فى الأولى باختيار ما يلائمها ثم تصيغه بطابعها . وبد التمصير لا تمتد إلى الحضارة الجديدة فحسب ، بل إنها تمزج حضارتها القديمة – فى تمصيرها – بالحضارة الجديدة فيبدو طابعها القديم فى ثوب جديد هو مزيج من تلك الحضارات ففن العمارة المصرية له طابعه الخاص منذ العصر الفرعونى ، وعندما اعتنقت مصر الديانة المسيحية انعكست مظاهر تلك الديانة على هذا الفن ، ولما احتضنت مصر الإسلام طالعنا فن العمارة المصرية الإسلامى بسمات جديدة متأثرا بالطابع الإسلامى وقد حدث ذلك فى مختلف الفنون ، ومن أبرزها فن الزخرفة الذى بدا فى

---

(١) الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربى حتى آخر الدولة الفاطمية د . محمد كامل حسين ص ٩ ، ١٠

المنسوجات وصناعة الورق إذ أخذت هذه الفنون تعكس لنا الروح المصرية التى جمعت بين الطابع القديم والتأثيرات الجديدة ، فزخارف المنسوجات المصرية فى ظل الإسلام نراها مستمدة من وحى البيئة الطبيعية إلى حد بعيد ، وكانت من قبل تتخذ صور الحيوانات والأشخاص زخرفة لها . وفى العصر الفاطمى غلبت مظاهر الزخرفة الإسلامية على المنسوجات المصرية ومع ذلك لم تخل زخارفها من سمات تدل على شىء من علاقاتها بماضيها فى وادى النيل وكذلك الشأن بالنسبة لصناعات الخشب والخزف والمعادن والزجاج فإنها حملت مزيجاً من الخصائص الإسلامية والمسيحية والفرعونية وبذلك عكست مظاهر التمصير فى مختلف الفنون .